مع الإيطاليين

في حرب طرابلس

تأليف : آرتيف

ترجمة : منصور عمر الشتيوي

دار الفرجاني

طرابلس - ليبيا

مع الايطاليين
في حرب طرابلس

مع الإيطاليين

في حرب طرابلس

تأليف : **آرسي**

ترجمة : **منصور عمر الشتيوي**

دار الفرجاني

طرابلس - ليبيا

الطبعة الأولى

١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م

مقدمة الترجمة

إن الهدف الأول الذي دفع المؤلف – وهو إيطالي – لوضع هذا الكتاب كان الرد – إن صح التعبير – على الحملات التي قامت بها بعض الصحف البريطانية ضد ايطاليا وأفعال الانتقام التي كان يرتكبها جيشها ضد سكان طرابلس الذين ثاروا ضده . إلا أن المؤلف لم يفلح ، بل فشل في الرد على الاتهامات التي أوردتها تلك الصحف . ولو وضعنا أنفسنا في مكان القـــارىء البريطاني آنذاك لوجدنا أنفسنا أمام عدة احتمالات تناقض الادعاءات الإيطـالية . فالجيش الإيطـالي ، مثلاً ، متهم بإبادة السكان ، ولكن المؤلف ينكر وبنفس الوقت **يفتخر** بأحد الجنود لأنه « فلق » رأس مواطن من الخمس وجر جثته الى المدينة . ويجدر بالقارىء أن يعرف هذا الاستبسال ! ! والحكومة الإيطاليـة تدعي انها جاءت لنشر الحضارة والتقدم ، والمؤلف يعرضها على هـــذه الادعاءات ، ولكنه نسي أن القارىء سيتساءل حتماً وبأي حق « تتحمـــل » إيطاليا هذه المسؤولية في أرض لا صلة لها بها ؟ ثم هل عمليات ترحيـــل الآلاف من السكان من مناطقهم وإعدام المئـــات منهم ونفي الآلاف الآخرين تعد من وسائل نشر الحضارة؟ وفشل المؤلف في خدمة هدفه ولم ينجح إلا في شيء واحد فقط هو استعمال كلمتي « عربي » و « مسلم » ، واستغلهما استغلالاً كاملاً متى رأى أياً منهما تخدم مصلحته ، لأن كلمة « عربي » كانت ولا زالت حتى اليوم تنم في أوروبا وأمريكا عن كل معاني القبح والجهل والتأخر والحقد والكراهية . ويضيق المجال هنا عن ذكر الأسباب التي آلت بها إلى هذه المترادفات، ولكن يمكن أن يذكر « الدين » كسبب رئيسي تتفرع منه الأسباب الأخرى . فكلمة « عربي » ارتبطت بكلمة «مسلم»، وكلمة مسلم سجلها الأوروبيون وكنائسهم كما يحلو لهم

في أذهان الجماهير وكرسوا جل جهدهم لتشويهها وتحقير أتباعها . ولا زالت الحملة ضدها قائمة على قدم وساق حتى اليوم رغم أن التركيز الآن يقع بشكل خاص على العربي لأسباب لا تخفى على أحد .

وقد كان المؤلف يعرف ما تعنيه الكلمتان في آذان الأوروبيين لأن نشاط الكنيسة آنئذ كان في قمته ، وممثلوها لم يتوقفوا عن تأليب الجماهير لمزيد من التبرعات والحملات ضد الدين الإسلامي . وقد وقف أحد رجال التبشير مرة خطيباً فقال : « ... ان الإسلام لا يزداد اتباعه فقط ،بل هو يمتد قاهراً ومنتشراً في بلاد الهند وبورما وغرب افريقيا وأوغاندا والكونغو وشمال الحبشة ،وأثبتت الإحصائيات أن اتباع هذا الدين قد زادوا بنسبة ٣٣ ٪ في بورما في خلال عشر سنوات ... أما في ساحل الذهب فالوضع خطير جداً لأن أحد القسس قد نبذ المسيحية ودخل وأتباعه الدين الإسلامي* » إذاً ما الحل ؟ يرد نفس المتكلم قائلاً : « ان انحلال الإسلام اليوم يفرض علينا القيام بحملة تغطي العالم كله لتطهيره من الدين الإسلامي ... وسوف لن يحكم الهلال العالم مرة أخرى ، إذ ها هم أتباعه البالغ عددهم مئتي مليون واقعون تحت السيطرة الأوروبية باستثناء ١٨ مليوناً لا زالوا تحت حكم السلطان (بتركيا) ... * » . ويطول الحديث ان شئنا الاقتباس من الحملات التي كانت قائمة ضد ديننا فيبداية القرن العشرين عندما كان العالم الاسلامي كله تحت السيطرة الاستعمارية ، واعتقد رجال بعثات التبشير أن الوقت كان في صالحهم ونالوا التأييد الأدبي والمادي من جميع معاقلهم ،حتى أن البابا نفسه بارك سبحة واهداها للأسطول الإيطالي عندما قررت إيطاليا غزو ليبيا كبشرى انتصار مسيحي على الاسلام .

وعلى أي حال استطاع المؤلف أن يؤلف كتاباً ويضعه في رفوف المكتبات . ولعله نجح في إقناع بعض المتعصبين الدينيين أو المؤمنين بتفوق جنس على

---

* Students & Modern Missionary Crusade
Student Volunteer Movement - N.Y. 1906 pp 94 - 207 - 223.

آخر لأن تلك الفترة كانت فترة لم تختف فيها التصنيفات التي وضعهـــا العهد الفكتوري البريطاني « ... في قمة السلم (البشري) تقف بريطانيا والأجناس الأنجلو ساكسونية ، ثم الأجناس اللاتينية ، وبعد هوة الاجناس الشرقية »** .

ولم يتوقف المؤلف عن مهاجمة تركيا بشتى الطرق،فوصفها بالجبن والتهرب من المسؤولية والتأخر والجهل.ولم يخطىء في واحدة منها إلا تهمة الجبن،لأن الجندي التركي معروف بالإقدام والشجاعة. إلا أن ظروف تركيا آنذاك هي التي وضعتها في موقف مرتبك في مناهضة إيطاليا بليبيا ، إذ كانت الخزينة مفلسة والادارة لا وجود لها ، وألف مشكلة من مشاكل البلقـــان تنخر هيكل الامبراطورية التركية . هذابالاضافة إلى تصميم الأوروبيين على دفن تركيا إلى الأبد. وباختصار فقد كانت تركيا في أشق المواقف،وبلغت المهزلة فيها حداً جعل المؤلف يهدد أن إيطاليا قد تهاجم استانبول ! ووقعت تركيا اتفاقية لوزان سنة ١٩١٢ وتعهدت بسحب موظفيها الإداريين وأفراد قواتها المسلحة من ليبيـــا ، وبقي الليبيون يحاربون بالتعاون مع من فضّل من الأتراك التطوع في صفوفهم .

وعلى أي حال،فقد بدأ الاحتلال الإيطالي ليبيا في سنة ١٩١١ وانتهى رسمياً بنهاية الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٣ بإفريقيا ، وانتهت صلة ايطاليـــا بمستعمراتها لأنها وقعت في اتفاقية السلم الإيطالية على التنازل عنها كلية؛إلا أن فترة الوجود الايطالي بليبيا يمكن أن تقسم إلى ثلاث فترات هي : فترة الاحتلال من بدايته حتى نهاية الحرب ، وفترة ما قبل الاستقلال ١٩٤٣ — ١٩٥١ ، وفترة ما بعد الاستقلال من ١٩٥١ — ١٩٧٠ . ففي الفترة الاولى كانت السلطة في أيدي الإيطاليين قانوناً وعملاً وليس لنا أي شيء إلا الحرمان والاحتقار . وفي الفترة الثانية كانت السلطة بحكم الامر الواقع في أيدي الافراد الإيطاليين الذين بقوا

** Africa & The Victorians
by : R. Robinson & J. Gallager -
Doubleday, N.Y, 1948 p. 2.

بطرابلس بعد الحرب،لأنهم كانوا في المراكز الحساسة تجارياً واقتصادياً وسياسياً.. وفي فترة ما بعد الاستقلال انزوى ما تبقى من الايطاليين عنا وكرسوا جهودهم لسلب ما يمكن سلبه من اقتصادنا وكرامتنا..حتى انهت الثورة إقامتهم سنة ١٩٧٠ وانتهى بذلك الوجود الإيطالي في ليبيا .

وقد ترجمت هذا الكتاب حتى أضعه أمام القارىء الليبي لكي يعرف الصورة التي صوره بها عدوّه في العالم بالإضافة إلى سلب أرضه وقتل آبائه .

منصور الشتيوي

أثينتر / جورجيا سنة ١٩٧٠ .

مقدمة الكتاب

لقد حدث ما كان متوقعاً ، وحل الامر المحتوم وها هي إيطاليـــا تضطر لاحتلال طرابلس وضم مقاطعتي السلطة التركية إلى سيادتهــا بسبب عوامل الكرامة الوطنية . ولم تعترض الحكومة التركية في يوم من الأيام وجهة النظر الإيطالية وعمت نفسها سياسياً بنقطتين وهميتين هما :

١ ـ ان إيطاليا سوف لن تقدم على مواجهة المشكلة الطرابلسية .

٢ ـ ان الدول الكبرى سوف لن تعطي لإيطاليا حرية العمل إن أقدمت على مواجهة تلك المشكلة . ولكن هاتين النقطتين آلتا بتركيا إلى فقدان طرابلس وبرقة ، ولم تفد اتفاقية سنة ١٨٩٨ / ٩٩ الفرنسية البريطانية في انذار تركيا بأنها ستفقد مقاطعتيها في شمال إفريقيا ، ولم تفهم تركيا ان التفاهم الفرنسي البريطاني قد أعلن إنذاراً لها. وقد حاولت الحكومة الإيطالية أن تزيد أهمية مركزها في طرابلس خلال السنوات العشر المـــاضية إلا أن محاولاتها لاقت الفشل في عهد الأتراك الشبان مثلما لاقت الفشل في العهد الذي سبقهم أثنـــاء حكم السلطان عبد الحميد . ومضت الحكومة التركية بكل إصرار في سوء إدارتهــا سياسيــاً ومدنياً،وبدأت الأمور في طرابلس تسير من سيء الى أسوأ . لقدسادت الفوضى والبؤس في كل مكان ، وانحدرت سمعة تركيا الى الحضيض ، وأصبحت طرابلس وبرقة رهن القدر سياسياً واقتصادياً. ولم تبق إلا طرابلس من كل مناطق البحر الأبيض المتوسط ـ بعد تصفية المشكلة المراكشية ـ منطقة تعيش حياة البربرية والتأخر . وكره حتى سكانها ـ العرب الذين عرفوا بالصبر ـ الإهمال الذي تراه بلادهم والركود المسيطر عليها .. وظهرت تركيا كعدوة لنفسها فتلاشت أهميتها

وجعلت انهيار سلطتها في افريقيا أمراً محتوماً . ان العالم كله يعرف ان الرومان هم الذين مدّنوا طرابلس ، وان الأتراك والعرب هم الذين هدموا تلك الحضارة، ولا زالت بقايا البنيان والقصور وقنوات الماء تشهد على الحضارة التي كانت قائمة. أمـــا الأتراك فلم يفعلوا شيئاً إلا التخريب والتدمير ، وليس هناك ولاية من الولايات التي يحكمونها الآن إلا وكانت قبل مجيئهم لهـا ولاية مزدهرة متقدمة . بل ان الحكم التركي كله لا يعدد كونه سلسلة من الاغتيالات والسرقات وسوء الإدارة والتخريب الشامل العام .

وقد جاء الأتراك الشبان الى الحكم في خلال السنوات الأربع الماضية ،ولكن الاغتيالات والمذابح، والسرقات وسوء الإدارة استمر كسابق عهده ولم يغيروا شيئاً . وليس العالم مديناً بأي شيء لتركيا اللهم إلا بالكوارث ، أمـا لإيطاليا فالعالم مدين بالكثير في حضارته الحالية . أفلم يكن الإيطاليون هم الأول في سد التقدم التركي ضد أوربا ؟ إن الأتراك لم يعطوا لطرابلس ما تستحق من اهتمام ولم يتحملوا مسؤوليتهم ، ولم يقدموا في خلال كل حكمهم حتى على إحصاء عام لسكانها ، وتركوها رغم موقعهـا في البحر المتوسط تعيش حياة الجهل والبؤس والهمجية ، حتى اصبحت مناطقها التي عرفت بخصوبتها وانتاجها قاعا صفصفا ، وفضل السكان تدمير أشجار الزيتون على صيانتها بسبب العنت التركي وتسلطه . لقد أخبرنا المؤرخ بلني ان الامبراطور أغوسطوس استلم سنبلة قمح بها ٤٠٠ حبة من منطقة Biracio الواقعة غرب طرابلس، وان نيرو استلم سنبلة من قمح برقة بها ٣٤٠ حبة . ان تربة برقة الحمراء تربة خصبة جداً ، ولو قدر لها أن وضعت تحت أيد خبيرة لاستطاعت أن تنتج محصولين سنوياً . إن مسألة السيطرة على تلك المنطقة لا تعطي أي حق في ضرورة الاحتفاظ بهـــا ، لأن حق الاحتفاظ بالشيء يعتمد على مدى صلاحية الإدارة والتقدم نحو الأفضل والأخـــذ بالقيم السياسية نحو التطور . وقد شعرت إيطاليا أن من مسؤوليتها أن تتولى الامور رغم سوئها في طرابلس .. لأنها قضت سنوات طويلة تعمل في صمت وسكون على الاستعداد لهذه المسؤولية . وها هي اللحظة المناسبة قد أتت . وأوربا كلها

عرفت أن ايطاليا قد ألحقت طرابلس بها وضمتها إلى سيادتها . بل ان اللحظة كانت في غاية المنـــاسبة لدرجة أن الدول الأوروبية قد تسيء فهم السياسة الإيطالية فيما لو لم تقدم ايطاليا على خطوة احتلال طرابلس . وليس هناك دليل على ملائمة الظروف أكثر من دليـــل ان دول أوربا كلها لم تعارض الخطوة الإيطالية . بل بالعكس ، لقد هرعت رئاسات الوزارات الأوروبية إلى إعلان الحياد ، وانهالت الدول تنصح تركيا بقبول التنازل عن طرابلس وقبول الأمر المحتوم مقابل تعويض مادي،اسوة بما فعلت تركيا في سنة ١٩٠٨عندما تنازلت عن مقاطعتي بوسينا وهيرزوقوفينا الى النمسا . وباختصار لقد قبلت أوروبا كلهـا احتلال طرابلس . وقد كان في الإمكان تفادي الحرب والدمار لو عملت تركيا على تسهيل تسلل إيطاليـــا الى طرابلس بدل عرقلة المحاولات الايطالية ومعارضتها . وها نحن نعطي فكرة عامة عن الاهانات التركية ضد إيطاليا حتى نوضح كيف فرضت تركيا الحرب على ايطاليا . لقد أرسل الكونت سان جوليانو ، وزير الخارجية الايطالية ، المذكرة التالية الى السفارات الايطالية قبل تسليم الانذار إلى تركيا يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩١١ ، لكي يوضح علاقـــة إيطاليا بتركيا :

« الضغط على الإيطاليين »

لقد دأب الإيطاليون المقيمون بأراضي الدولة العثمانية على إرسال شكاو الى الحكومة الايطالية من جراء سوء المعاملة التي يلاقونها على يد المسؤولين الاتراك، وتصرفت تركيا كالعادة كلما رفعت لهـا شكوى من هذه الشكاوي ، ولم تفعل أكثر من نكران المسألة كلياً أو إهمالها دون أي تحقيق في مدى صحتها ، كما وقع في حالات وشكاوي جوستينياني ، وكولم ، وكريتوني ، ومار كروبولي، وسارا وغيرهم الذين كانوا دائنين للحكومة التركية أو لأعضاء الأسرة المالكة التركية . وقد اضطرت المؤسسة الإيطالية ستباقني للتوقف في عمليات قص

الاخشاب التي تحصلت على امتياز فيها من قبل تركيا في مقاطعة بروسا بسبب ضغط السلطات الحكومية التركية. ورأى الايطاليون كل المصاعب في سنة ١٩٠٩ عندما وقعت مذابح أدنه ضد المسيحيين، ووقعت مكاتب شركة الملاحة الإيطالية في سانتي كوارنتا ضحية للاعتداء والتخريب، وأهين موظفو القنصليات الايطالية وعرقلت أعمالهم. وقد رحبت الحكومة الإيطالية بوصول الأتراك الشبان، إلا أن الحوادث استمرت كما كانت في السابق، بل زادت في حدتها وصرامتها. ووقعت في الآونة الاخيرة جدا حادثة خطيرة.. هي حادثة اختطاف جولياني فرانزوني التي لا يزيد عمرها عن ست عشرة سنة، وهي ابنة عائلة إيطالية محترمة تعمل في مؤسسة الخطوط الحديدية التركية في أدنة. وبعد اختطافها فرض عليها الدين الإسلامي والزواج قسراً من أحد الرعايا الاتراك، وضاعت هباء كل محاولات أسرتها واحتجاجات المقيمين الاجانب في سبيل إطلاق سراحها. ولم يفلح القنصل الايطالي أيضاً. بل ان تدخلات السفير الايطالي نفسه لم تفد شيئاً. ان هذه الحادثة تمثل سابقة خطيرة لجميع أمم العالم بصفة عامة ولإيطاليا بصفة خاصة. لأن رعاياها بالأراضي التركية رعايا كثيرون خاصة في السكك الحديدية العاملة في آسيا الصغرى. وانها لحادثة تستحق كل اهتمام لأنها تمثل بادرة خطيرة في المستقبل السياسي.

« القرصنة في البحر الأحمر »

إن أخطر التحديات ضد ايطاليا منحصرة في البحر الأحمر وطرابلس حيث هناك العديد من المصالح الايطالية، ويصعب بحق على المرء أن يعدد كل الاهانات والجرائم التي ارتكبت ضد العلم الايطالي، ولكن يجدر بنا أن نذكر ما وقع منها ابان حكم الاتراك الشبان :

٥ يونيو ١٩٠٩ : اعترضت الباخرة التركية « نوراهار » الباخرة الايطالية « سليمة » وهي على بعد ٢٥ ميلاً عن الشواطىء التركية، واستولت على كل ما

فيها ، وارتكبت حادثة قرصنة دولية لا مثيل لها . وبعد مرور أسابيع قليلة تعرض زورق طوربيد تركي من ميناء الحديدة الباخرة الايطالية جنوى وعامل بحارتها أسوأ معاملة .

١٢ ديسمبر سنة ١٩١٠ : كانت المفاوضات جارية بين الحكومة الايطالية والحكومة التركية عن حادثة الباخرة جنوا ، ولكن زورقاً مسلحاً تركياً اعترض طريق باخرة بريد إيطالية عاملة بين آفابا وماسّاوا بأرتيريا وأجبر ضابطها على تسليم البريد . وارتكبت تركيا أعمالاً خطيرة أخرى ضد السفن التجارية الإيطالية التي يملكها علي كوزم وخالد حمد في ماسّاوا .

٢١ أغسطس سنة ١٩١١ : كانت الباخرة الإيطالية « فتح السلام » مبحرة بشحنة من أرتيريا ، وأوقفتها السلطات التركية وأجبرتها على التوجه الى الشواطىء العربية ، وضربت ضابطها بالفلقة ورمته بالبحر واستولت على شحنتها ومؤونة بحارتها . وأدت مثل هذه الاعتداءات إلى توقف تجار أرتيريا على المتاجرة مع سكان الشواطىء العربية وتعرضوا للخسائر المادية .

« الاعتداءات في طرابلس »

أما الاعتداءات التركية ضد إيطاليا في طرابلس فهي اعتداءات مركزة ولا غطاء عليها إنها لا تدل على شيء إلا العداء والكراهية ،ولا تركـّز على شيء إلا على معارضة المصالح الاقتصادية والسياسية الايطالية حتى تعرقل النفوذ الايطالي . ولنأخذ بنك روما كمثل عام : إن هذا البنك مؤسس برأسمال إيطالي وفتح فرعاً بطرابلس لخدمة المصالح الاستعمارية في تلك البلاد، الا أن السلطات التركية منعت على السكان التعامل معه ، وعاقبت معاقبة صارمة كل من حاول الاتصال به . وقد تعرض الولاة الذين أتوا لطرابلس الى التغيير عدة مرات ، أما سياسة تركيا فلم تتغير أبداً . وأخيراً جاء ابراهيم باشا كوال في سنة ١٩١٠

وأعلن جهاراً في مجلس الادارة بطرابلس أنه جاء لمعارضة المشاريع الايطالية، وجعل السكان يتخيلون أنه يحمل أوامراً من استانبول لاتباع هذه السياسة . وهكذا رفضت الادارة التركية عروض ايطاليا للاشتراك في المنشآت العامة مثل أعمال شبكة المياه، وخطوط البرق، وانشاء الطرق، وتحسينات ميناء طرابلس . أما في بنغازي ودرنة والخمس فقد عاقبت هذه الادارة السكان الذين يرغبون في بيع أراضيهم الى الايطاليين ؛ ولم تتوان السلطات التركية في وضع العراقيل ضد بعثات الآثار والمعادن الايطالية رغم الوعود التي كررتها بتسهيل مهمتهم، ووقفت في طريق بعثة المعادن التي يترأسها الكونت سنوريسا، وزادت كل العراقيل حتى خشي السكان الاستفادة من التسهيلات الإيطالية خوفاً من التعرض للعقوبات الصارمة .

« قتل الرعايا الإيطاليين »

لقد وقعت حوادث قتل خطيرة مثل قتل الأب جوستينو في درنة، وقتل الصحفي الايطالي كاستوني تريني في الخمس، ولم تفعل الحكومة شيئاً في هذه الجرائم رغم الاتصالات الدبلوماسية الايطالية التي طالبت بإعادة الامن وإعطاء تعويض لعائلتي هذين المواطنين الايطاليين .

لقد وقعت حادثتا القتل بسبب كراهية وحقد الاتراك، وأثارتا الفزع والخوف في قلوب الايطاليين المقيمين بطرابلس . ولم تهتم السلطات التركية هناك بكل محاولات القنصل الايطالي، ورفضت كل احتجاجاته،مثلما حدث عندما ألقت السلطات التركية القبض على الصحفي الايطالي أربيب واعتداء الشرطة عليه بالضرب رغم تدخلات مترجم القنصلية الايطالية . اما جريدة «المرصاد» فلا تتوقف عن كيل الاهانات لإيطاليا .

« صبر الحكومة الإيطالية »

لقد استقبلت الحكومة الإيطالية تولي « لجنة الاتحاد والتقدم » للسلطة في تركيا بكل ترحاب ، ونظرت بعطف في ترك المجال لتلك اللجنة حتى تؤسس وترتب قاعدتها في الحكم دون أن تضع أمامها أي عراقيل في أوربا ، واتسمت – إيطاليا – بصبر لم يعهده التاريخ بين الأمم في العالم . وكنا نتوقع الكثير من تقوية وتوحيد السلطة على يد الحكومة التركية الجديدة لأنها أتت ببرنامج عظيم . ولكن لم يتحقق شيء ، بل بالعكس ازدادت الأحوال سوءاً ، وفشلت حكومة استانبول في تحقيق كل الوعود التي أعلنتها ، وأثبتت أنها غير قادرة على ممارسة السلطة في أي مكان – لدرجة أن سكان طرابلس لم يعودوا مهتمين بالسلطات الحكومية وفعاليتها ، أو بمعنى آخر : أثبتت تركيا أنها ضعيفة جداً وغير قادرة على احترام الاتفاقيات والمعاهدات التي وقعتها بنفسها ، وفشلت في الوفاء بعهودها لإيطاليا ودول العالم .

واستمرت كما ذكرنا سابقاً الحوادث الخطيرة تحدث يوماً بعد يوم ، ولم تفعل تركيا شيئاً الا اتباع سياسة التسويف المعهودة لديها . وأخيراً ثارت الصحافة الإيطالية وهاج البرلمان الايطالي مطالباً الحكومة الايطالية بالتدخل لوقف موجة العداء ، وأعلم السفير الايطالي في استانبول الحكومة التركية بكل هذه هذه التطورات . . لكنه لم يعد بأي نتيجة . وهكذا وجدت ايطاليا نفسها مضطرة لاستعمال السلاح لتأكيد حقوقها المشروعة . لأن الأمل في حل المشاكل مع تركيا سلمياً قد ضاع بسبب ضعف السياسة التركية وتأجيلاتها وتسوياتها . لقد أعطت تركيا لإيطاليا فرصة للمفاوضة لأنها انتهكت القانون الدولي ، وها هي ايطاليا تجد اللحظة النفسية الملائمة لتنفيذ مخططها ، وها هي قد أقدمت عليه . إن سمعة وشرف ايطاليا كانا رهن القدر في أعين العالم فيما لو لم تقدم الحكومة على خطوة التنفيذ . ان اللوم كله في الحرب التركية الايطالية القائمة يقع على عاتق تركيا .

ملاحظـــة

إن الأخبار التي وصلتنا* عن الحرب في طرابلس أخبار غير صحيحة وغير حقيقية لأن مراسلي الصحف لم يستقوا هذه الأخبار من ميدان القتال، واعتمدوا في جميع أخبارهم من مصادر ثانوية، ولذلك لا نثق فيها . وقد رأى آرسي أن يقدم للجمهور البريطاني أخباراً واقعية لما حدث ، من مذكرات الذين اشتركوا في الميدان والمعارك . خاصة وانه في مركز يؤهله من معرفة كثير من المعلومات من جريدة كوربيري ديلا سبيرا. ويمكننا الاعتماد على ما يقدمه لنا لأنه آت من مصادر موثوق بها. وسيضع آرسي ريع هذا الكتاب تحت تصرف عائلات الجنود الذين فقدوا حياتهم في هذه الحرب .

* في بريطانيا .

القِسْمُ الأوّل

الفصل الأول

امسية الحرب

اننا مستعدون على ظهر سفن القسم الثاني من أسطولنـــا منذ أن سلمت الحكومة الإيطالية انذارها إلى تركيا يوم ٢٨ سبتمبر ١٩١١ ، ومنذ ذلك اليوم ونحن نجوب الطريق من مالطا إلى طرابلس حتى ننقض على طرابلس إن حاول الأتراك والمسلمون المتهورون الاعتداء على رعايا بلادنا أو رعايا الدول الاوروبية الأخرى . ورأينا ليلة ٢٨ سبتمبر الباخرة التركية «درنة» متوجهة نحو طرابلس محملة بالأسلحة والعتاد والذخيرة . وألقت البارجة نابولي أضواءها الكشافة عليها واكتشفنا أنها كانت تستعمل اسم اتيل فريدريك الألماني كاسمٍ مزور ، ولكننا تركناها تمر رغم اننا عرفنا تزويرها ، ولم يكن من الصعب علينا أن نمنعها من الاستمرار في رحلتها ، لأن تعليمات رئاسة الأركان تفرض علينا ألا نتعرض لها حتى تدخل ميناء طرابلس وتبدأ في تفريغ شحنتها بعد انهـــاء مدة الانذار وتعطينا عذراً لبدء العمليات الحربية . وفي ليـــلة ٣٠ سبتمبر أطلق الاسطول صافرة الانذار وهب رجال البواخر كل إلى عمله . وصدرت أوامر رفع عـــلم الحرب ، وتقدم القائد العام وفتح الصندوق الذي به ذلك العلم وأخرجه وقبّله وقدمه لبحارين لرفعه عالياً . ورفع البحاران العلم مرفرفاً مع النسيم وحيّـــاه الرجال التحية العسكرية ، ولاحت لنا طرابلس على بعد ميل واحد فقط ! لقد كانت ليلة مظلمة وكانت قلوبنا تدق تتوقع بدء القتال في أي لحظة . أمـــا أنا شخصياً فقد جاءتني الأوامر للنزول الى ميناء طرابلس وتقصي ما يجري فيه

حتى أتأكد بالذات من وجود الباخرة التركية درنة . وأنزلت زورقاً في الحال، وتوجهت مع بعض رجالنا إلى الميناء ودخلناه . وقد وجدنا به خمس سفن منها سفينتان قديمتان تكاد تغمرهما المياه تابعة للحرس التركي،والباخرة اتيل فريدريك أو درنة ، وتجولنا بين هذه البواخر وفحصنا كل شيء هنـاك وقفلنا عائدين . وقد كان معنا صاروخ لإطلاقه إن وقعنا في أي خطر أثناء قيامنا بمغامرتنـــا حتى تأتي لنا النجدة .

وقد يصل زورق من طرابلس مع خطوط الفجر الاولى به رسالتان من القنصل الايطالي الى قائد الاسطول . وكانت إحدى هـــاتين الرسالتين تتعلق بتزوير الباخرة درنة لاسمها وبرفعها لعلم ألماني بدل علم تركي . وفهمنا ان أسلحة تلك الباخرة كانت توزع على قدم وساق على السكان وان الغليان قد يصل حده بين المسلمين بطرابلس ، فخشينا أن تبدأ الاعتداءات ضد السكان الاوروبيين المقيمين بهذه المدينة . ونقلنا هذه الاخبار إلى قادة السفن الثابتة للأسطول ، وتقرر أن نقوم باستعراض بحري حتى نري الاتراك والعرب مدى استعدادنا.

وفي الساعة السابعة تماماً من يوم ٧ اكتوبر استعدت سفننا وعددهـــا خمس عشرة سفينة في مواقعهـــا لقصف الاتراك وبدأت تنتظر صدور الأوامر ببدء الهجوم . وفي الساعة العاشرة استلمت الاوامر من قـــائد الاسطول بالنزول الى طرابلس وإعلام القنصل الإيطالي ببدء ترحيل الإيطاليين ومن يرغب من الجاليات الاوروبية من طرابلس، وإعلام قائد الاتراك وممثلي الدول الاجنبية بالمدينة ببدء الحرب بين ايطاليا وتركيا . وتوجهت الى الميناء ، ورأيت من واجبي بعد نزولي أن أزور قائد الحرس التركي . والتقيت به فاستقبلني بالشرف العسكري ، وبدأ الايطاليون في المجيء الى الزوارق بعد الظهر . وكان منظرهم منظراً مؤسفاً ! انه منظر مكون من نساء وشيوخ وأطفال كلهم خوف ورعب من بينهم سيدة متقدمة في العمر لم تستطع السير على قدميهـا وهي محملة عائـدة الى وطن ولدت به . وقد رافق مترجم القنصل الايطالي هؤلاء الإيطاليين لأن المظاهرات قد

اندلعت ضدهم ؛ ورفض ملاك الزوارق العرب نقل الإيطاليين في بداية الامر ولكنهم وافقوا بعد أن أغدقنا عليهم العطاء وبدأوا في العمل. ودأبت الزوارق على مغادرة طرابلس والعودة إليهـــا لساعات طوال . ثم أتى القنصل الايطالي السنيور قاللي كآخر شخص يترك طرابلس بعـد أن اتصـل بزملائه في البعثات السياسية واعلمهم عن قرب موعد بدء الهجوم العسكري الإيطالي . وغادرت الزوارق الميناء رافعة علماً أبيض حتى لا تتعرض لاي اعتداء ، واتجهت نحو قطع الاسطول التي كانت مستعدة لبدء عملياتها العسكرية . ورفع الاتراك الآن علم الحرب أيضاً على كل تحصيناتهم ومواقعهم التي كانت تلوح لنـا بين رمـال الصحراء الصفراء . ووقفت مجموعة من الجنود الاتراك على قصر الوالي تراقب مغادرتنا ، أما السكان فقـد انتشر الرعب بينهم وبـدأوا في مغادرة المدينة . وأقفلت المحلات التجارية أبوابها ، وتعرضت مئات المنازل الى النهب وأصبحت الشوارع صحراء قاحلة ، فلم نر بشرفات المنازل أي شخص اللهم إلا مجموعة من الصحافيين الإيطاليين الواقفين بشرفة مبنى القنصلية الايطالية .

وخيم الليل على طرابلس ولا حركة أو سكون فيها اللهم إلا رفرفة أعلام الدول على مباني هيئاتها السياسية ومنازل الاوروبيين بالمدينة . ورأينا زورقاً يغادر طرابلس رافعاً علماً أبيض ، انه زورق أحد اليونانيين تاركاً المدينة . ورأينا أيضاً المؤذن ينادي للصلاة من مسجده ، ورأينا شلة من بني وطننا على مبنى قنصليتنا يحيون علمنا ويلوحون لنا بأيديهم فأجبناهم بالمثل . وسمعنا في نفس هذا المساء خبراً ساراً جداً وهو استيلاء اسطولنـــا الذي يقوده صاحب السمو الامير ديوك ابروزي على ميناء بريفيا التركي يوم ٢٩ سبتمبر بعد أن أغرق ثلاث بواخر تركية عندما وقعت المعركة بينه وبين القطع التركية التي كانت مكلفة بعرقلة تحركات سفن النقل الايطالية في جنوب ايطاليا .

الفصل الثاني

قصف طرابلس

أرسل الادميرال فرايتلي مطالباً الأتراك بالاستسلام يوم ٢ اكتوبر ، ولكن الأتراك طلبوا اعطاءهم مهلة ٢٤ ساعة حتى يتصلوا باستانبول واستلام الاوامر منها ، فعرضنا على القائد التركي أن يستعمل خطوط البرق الخاصة للأسطول لأن الاتصال بين طرابلس وتركيا كان مقطوعاً منذ صباح يوم ٣٠ سبتمبر ، ورفض العرض ورفض الاستسلام أيضاً وحان وقت المدفع للتكلم .

ان القلاع التي نريد مهاجمتها كانت ست قلاع : قلعة المنارة وهي واقعة على مقربة من البحر وبها أربعة مدافع ثقيلة ، وعلى شرقيها القلعة الحمراء وبها عشرة مدافع من عيارات مختلفة . أمـــا خارج المدينة فهناك قلعة الحميدية في الجهة الغربية . وقد قسمنا بواخرنا لقصف هذه القلع ، وكانت حصة البارجتين غاريبالدي ونيرونكيو قصف قلعــة الحميدية ؛ وحصة برن وسانت بون قلعتي المنــارة والحمراء ، وحصة سيسيليا وساردينيا قلاع قرقارش الثلاث . وفي الساعة الثالثة مساء من يوم ٣ اكتوبر صدرت أوامر الاستعداد الكلي وأسرع رجال المدفعية كل إلى مكانه ، ولم يمض إلا ثوان بسيطة حتى كان كل رجل في مكان مهمته ، وخيّم السكون انتظاراً لظهور إشارة بدء القتال .

اننا نعرف مقدماً من المعلومات التي وصلتنـــا مدى رمي المدفعية التركية الذي لا يتعدى الألف ياردة . وفي الساعة ٣،١٥ شقت عنان السماء طلقة مدفع

عنيفة . انها طلقة الباخرة برن وكانت هي طلقة البداية ضد القلعة الحمراء . واصدرت الأوامر لرجالي للاستعداد والهدوء ، ورد الأتراك علينا بمدفعيتهم ووقفنا نراقب ما يجري حتى رأينا قنابلهم تسقط في البحر قبل أن تصلنا . فانفجر رجالي ضاحكين ، ولكني أنبتهم وأمرتهم باحترام العدو لأنـه يدافع عن بلاده رغم أنه أضعف منا استعداداً وقوة . وبدأنا نحن القصف ، عشر طلقات في كل مرة ، وسكتت قلعة الحميدية بعد حوالي ساعتين ولم ترد علينا . أما قلعة المنارة وقلاع قرقارش فلم تتوقف بعد . وقررنا إسكاتهم أيضاً فسلطنا عليهم المدفعية الثقيلة من عيار ١٢ انش ، وغمرهم الدخان ثم انجلى وعرفنـــا أن قلعة المنارة قد تهدمت وان قلعة الحمراء قد اسكتت ، وبدأت المقاومة التركية في الخفوت ، ولكننـــا لم نتوقف عن القصف حتى المساء لكي نتأكد من تهديم مراكز الدفاع .

وعادت بوارجنا للقصف يوم ٤ اكتوبر صباحاً ، وكنا حذرين من الألغام البحرية التي كانت مزروعة منذ سنة ١٨٨٦ عندما غزا الفرنسيون تونس رغم أن ألغاماً كهذه قد لا تأتي بأي خطر لأنها قديمة ، إلا أن الحذر ضدها كان ضرورياً . واسكتنا قلعة قرقارش ومحطات المدفعية التي وراءها . وبعد ذلك كُلفت وبعض الرجال الآخرين بالنزول في رحلة لاكتشاف مكان منـاسب للانزال العسكري تحت حماية مدفعية الأسطول لنا . ونفذنا الأوامر فنزلنـــا بجانب قلعة الحميدية . ودخلنا ورأيناها في حالة فوضى كاملة وعثرنا فيها على بعض مدافع كروب الحـديثة الصنع والبارود مبعثر في كل مكان ، لأن الاتراك لم يعرفوا كيفية استعمالها ولم يصيبوا أي باخرة من بواخرنا ، ووجدنا كميات هـــائلة من القنابل والذخيرة بداخل المخازن . وقررت أن نشعل هذه الذخائر حتى ننسف الحميدية واحراش النخيل التي قد تعطي لعدونا ميزة دفاعية ، ولم تمض ساعة من الزمن حتى اندلع انفجار عنيف علا منه عمود دخان كثيف ارتفع حوالي مئة ياردة تقريباً وانتشر مع الرياح فغطى طرابلس عن أنظارنا .

ان قصفنا لطرابلس قد لقن السكان والأتراك درساً ، واننا نرى من على ظهور بواخرنا الآن السكان فارين نحو الدواخل في طريقهم الى غريان التي تبعد عن طرابلس حوالي ٣٠ ميلاً، ومعهم القوات التركية لأن الجنرال منير باشا قرر ترك طرابلس عندما عرف أن مقاومة الانزال الايطالية لا تفيد شيئاً . وقــد كان هو ورفاقه يتوقعون وصول المساعدات من تركيا، تلك المساعدات التي طالما وعدتهم بها استانبول دون أن تلبيها فعلاً ، ولكنهم يعتمدون على العرب الذين زرعوا بينهم الاكاذيب ضد إيطاليا ووزعوا عليهم السلاح . وقد وجدنا أحــد الجنود الأتراك المجروحين على مقربة من قلعة الحميدية من الفرقة التي كانت مكلفة بالدفاع عن طرابلس من الناحية الشرقية، فأخبرنا أن أول الفارين كان ضابط تلك الفرقة، ثم لحق به مساعده ثم الجاويشان.. وهكذا نعرف ان الاتراك كانوا يهربون في الوقت الذي كان فيه البحارة الإيطاليون يستعدون لعمليات الانزال.

لقد اتخذنا كل الاحتياطات حتى لا نصيب المدينة نفسهـــا عندما بدأنا في قصف القلاع ، وبالفعل لم نصب الا عدداً بسيطاً جداً من المساكن القريبة من هذه المواقع ، وخسر الاتراك حوالى مئة قتيل وجميع مدافعهم .

ولما خلت المدينة من الأتراك اجتمع قادة السفن وقرروا البدء في إنزال قواتنا لاحتلالها وللمحافظة على الامن فيها حتى لا يتجرأ العرب الذين كانوا مسلحين على ارتكاب أي اعتداء على الاوروبيين أو أي محاولة نهب . وفي فجر يوم ٥ اكتوبر توجهت السفن الإيطالية نحو الشواطىء المقابلة لقلاع قرقارش واقتربت. ونزلت من هذه السفن عدة زوارق وبدأت في تحميل البحارة والذخائر والمعدات إلى الشاطىء تحت تغطية مدفعية الأسطول لعملياتهـــا . ونزلت أول فرقة من البحارة واحتلت قلعة سلطانة ورفعت العلم الايطالي. وابتهج الأسطول كله بهذه العملية لأن رفع العلم يمثل لنا أول بقعة نحتلها من تراب طرابلس ، أو بالأحرى أول خطوة في قهر طرابلس كلها . وظهرت طرابلس وكأنها في احتفـــال ،

وتجمع العرب هادئين في مجموعات هنا وهناك لمراقبة «مرتدي البدلات البيضاء» الايطاليين . وعادت الحياة الى المدينة بعد وجوم ثلاثة أيام وخرج الأوروبيون يرحبون بنا ويلوحون بقبعاتهم. أما العرب فقد كانوا حائرين. وتقدمت مجموعة منهم رافعة علماً أبيض يتقدمها حسونة باشا ابن أسرة القره مانلي العريقة الذي تعرض لاضطهاد الاتراك لأنه كان من مؤيدي الاحتلال الايطالي لطرابلس .

وكانت زوارقنا منهمكة طوال ذلك الوقت في المجيء إلى شواطىء طرابلس والعردة منها الى الاسطول معبأة بالرجال والمؤونة والذخيرة وكل أنواع العتاد العسكري . وبدأ بحارتنا في الاستعدادات والعمل ، واستمر الانزال حتى الليل فأعاد الحركة والنشاط إلى طرابلس وميناءها الذي انشل طول أيام القصف الثلاثة . ونصبنا بنادقنا سريعة الطلقات على الحيطان القريبة من تجمعات النخيل التي تحيط بالمدينة ، وأسرعنا بمد خطوط الهاتف بين مواقعنا وقطع الأسطول التي كانت على أهبة الاستعداد لحمايتنا ان تعرضنا لأي هجوم . أما أنا شخصياً فقد أخذت مجموعة من رجال فرقتي ودخلنـــا المدينة ، ورأينا أن كل شيء يطابق الأوصاف التي نعرفها عنها مقدماً . وعرفنا أن الأتراك قد انسحبوا منها إلى مناطق قرقارش وعين زاره ، وتقدر قواتهم بحوالي ستة آلاف رجل ضـد ألفي بحار من بحارتنا في خطوط دفاعنا التي تمتد حوالي ثلاثة أميال الآن . ولو قدر لهؤلاء الاتراك أن يبقوا في مراكز دفاعهم بدل الهروب بدون شرف لمـــا استطعنا الانزال الآن، أو على الأقل لاستطاعوا عرقلة هذا الانزال. اما رجالنا وبحارتنا فلا يعترفون بالخطر ، ويحاول كل واحد منهم أن يجد ذريعة لكي يكون في الخطوط الأمامية .

وقد تم تعيين الادميرال بوريا ريتشي دي الموكارل والياً لطرابلس،وتم تعيين الادميرال كاني كقائد للقوات الايطالية . وتوجه دي المو برفقة القنصل الإيطالي

إلى « الكوناك » أو قلعة الحكومة. ولم أر منظراً أهدأ من منظر هذا المكان . . لأنها فسيحة واسعة ، ولا زالت الاوراق الرسمية مبعثرة هنـا وهناك والزجاج المختلط بالفضلات منتشراً في كل مكان. وفي الواقع أنهى العرب بأعمال النهب هذه الحكم التركي وآثاره الرسمية ، وفتحـوا أبواب السجون رغماً عن إردة الحراس الاتراك الاقوياء ، وفر رجال الجندرمة ولحقوا بالجيش التركي النظامي الذي ترك طرابلس. ولو تأخر إنزالنا عن موعده لتعرض الأوربيون لنفس النهب والسلب. وبينما كان الوالي يتجول بالقلعة ، كان الادميرال كاني مجتمعاً مع حسونـــة باشا وحوالي مئة من العرب ورجال البعثات القنصلية في طرابلس . وتقدم حسونة باشا معبراً عن سروره ومرحباً بالحكم الجديد ومطالباً بمعاملة إنسانية تجـــاه مواطني بلاده . ورد عليه الادميرال كاني ووعد أنه سيكون أباً لهؤلاء المواطنين مؤكداً أن العقوبة تنتظر الجنود الإيطاليين الذين قد يرتكبون أي اعتداءات. ولكنه ذكر أيضاً أن العرب سيكونون عرضة لنفس العقاب إن حاولوا الاعتداء على البحارة الايطاليين . وقـد كان خوف حسونة على مواطني بلاده عائداً الى الاشاعات التي نشرها الأتراك بين العرب من أن الإيطاليين كانوا قادمين لقتل الرجال وانتهاك حرمة النساء . وليس هناك أجدر بتصديق هذه الاشاعات من الأتراك لأنهم متعودون على المذابح والقتل .

وقد كان من الضروري جداً أن نجرد السكان من الأسلحة التي وزعها الأتراك عليهم وتسليم الذخيرة التي كانت لديهم ، بعد أن تأكدنا من الأمن في طرابلس ، فكونا قوة أمن ، وتم تعيين حسونة باشا كعميد لبلدية طرابلس وأصدر أول بيان له قائلاً : « ان كل من يسلم سلاحه قبل منتصف الليل سيستلم ٢ تالير ، وكل من يسلم سلاحه قبل منتصف نهار الغد سيستلم تاليراً واحداً ، وكل من لم يسلم بعد هذا الموعد سيتعرض للتجريد من السلاح بالقوة » . وقد كانت نتيجة هذا الإعلان نتيجة لا تصدق ! لأن عدد السكان الذين جاءوا لتسليم سلاحهم

كان عدداً هائلاً وتكوّمت الأسلحة والبنادق والذخائر ، وتسابق العرب لرمي سلاحهم خوفاً من فوات أوان نصف الليل ، وجمعنا في النهـــاية حوالي ألفي بندقية ، إلا أننا نعتقد أن العرب لديهم آلاف عديدة من قطع السلاح التي وزعتها عليهم الباخرة درنة . وبينما كانت كل هذه الاجتماعات والاعلانات قائمة ، كان بحارتنا منهمكين في حفر الخنادق وبناء مراكز الدفاع . وأقبل الليل ، ولكن طرابلس الآن مدينة ايطالية قديمة !

الفصل الثالث

سبع ليالٍ في الصحراء

لقد كنت مرهقاً كل الارهاق بعد المشاق التي رأيتها في ذلك اليوم بالأرض المحتلة ، ولكني قضيت ليلة لا نوم فيها؛ لقد قمت في المساء بعملية تفتيش على طول خط دفاعنا الممتد لثلاثة أميال . إلا أن الليلة كانت ليلة جميلة فعلاً لأن قمرها كان مكتملاً ، وأشجار النخيل كانت تطاول سماء لا سحاب فيها ، وغمرتني رائحة الياسمين الذكية التي أتت من الجنينات القريبة منا ، وسمعت انين الجمال المارة بحمولاتها ونباح الكلاب في المناطق البعيدة. وبين تارة وأخرى شقت اضواء أسطولنا الكاشفة كثافة الظلام وكأنها البرق باحثة عن عدونا بين أشجار النخيل وفي كل مكان . وتدريجياً شعرت بهذا المنظر الشرقي الشاعري وهدوئه وسكينته الكاملة . وليس هناك ما يجعل المرء يعرف ان وراء كثبان الرمل وأشجار النخيل والحيطان مئات من بحارتنا ساهرون يحرسون مواقعنا بكل دقة وشعور بالمسؤولية.ومررت بين مواقعهم .. وعلا صدى وقع أقدامي رغم ان المنطقة رملية . وحالاً جاء صوت الحراس « من المار من هنا؟» فأجبتهم في كل مرة « مارين » وتركوني امر في طريقي وممراتها الملتوية التي بالكاد يستطيع أن يعرفها المرء حتى في وضح النهار ، وسرت من بقعة إلى أخرى متجولاً بين بحارتنا وخنادقهم . ان البحار لا يشعر بالغربة في الصحراء لأنها بالنسبة له بحر ثان، وخاصة في ليلتي هذه فضوء القمر ينعكس على حافة الواحة ورمالها ويحولها إلى شاطىء،وأضواء سفننا الكشافة يشق سكونها جزءاً جزءاً.

وقد وصل مراسل عسكري وسلم لي بعض الأوامر ، وقفل راجعاً في الحال. ومرت ساعات الانتظار بكل بطء ، وسمعت انين آتياً من وراء حدود الواحة فتوجهت نحوه لأجده صادراً عن عرب يكاد الجوع يقطع انفاسهم . لقـد بنى الأتراك في هذه المنطقة البعيدة عن الأنظار ما يسمى بملاجىء للجياع من السكان الذين جاءوا من مناطق الدواخل التي هجرها الجمع إلى المدينة ،وجمعت السلطات هؤلاء الجياع في منطقة ابو مليان وتركتهم للجوع. ان مجرد سماع انينهم وخفوته يجعل الليل كله مملوءاً بالحزن والشقاء .

وفي حوالي الساعة الثانية صباحاً بدأ البحارة يتهامسون قائلين : « أنظر ، الأتراك قادمون » ورنت أصوات البنادق استعداداً ، واستعد البحارة وصوبوا بنادقهم وخيم سكون مفاجىء على المنطقة كلها ، ورأينا على سفح المرتفع الذي أمامنا مجموعة سوداء من الرجال متجهة نحونا . وبدأت هذه المجموعة تتوزع في جماعات صغيرة استعداداً للاحتكاك بنا ، فوجهت الأوامر لرجالي « استعدوا » ولكنني قلت لهم في الحال « لكن لا تطلقوا النار حتى آمركم ، وعندمـــا آمركم بإطلاق النار صوبوا بنادقكم بدقة وإحكام ». وقد كانت الفرقة التي تهاجمنا فرقة من الأتراك النظاميين حسبما تدل طريقة توزيعها وطريقة هجومهـــا . واقترب الأتراك منا حتى أصبحوا على بعد مئتي ياردة فقط من خنادقنا فصحت في رجالي « أطلقوا النار » . ولعلع صوت الرصاص في التوّ والحال ،ورمى الأتراك بأنفسهم على الأرض وردوا علينا حالاً . ومر رصاصهم قرب آذاننا وكان لكل طلقة من طلقاته صوت خاص بها ، فتارة نسمع الرصاصة تولول وتارة أخرى نسمع رصاصة أخرى تصفّر ، تارة نسمعهـــا تهش وتارة أخرى تمر خاطفة سريعة. ولكننا كنا محظوظين لأن تصويب الأتراك كان عالياً ولم يصب أحد منا. ان الاشتباكات الليلية لا تأتي بخسائر عالية عادة لأن التصويب صعب فيهـــا ، ولكن الأتراك لم يتوقفوا عن إمطارنا برصاصهم ولم يتراجعوا عن مواقعهم. ولما

حمي الاشتباك وصل الجنرال كاني بنفسه . ونزل الى الخنادق وفحص المراكز وقدر قوة العدد بحوالي ١٢٠٠ رجل مقابل ٤٠٠ رجل من قواتنا . وطلبنا من الأسطول النجدة فبدأت مدافعه تدك مناطق تمركز الأتراك ، وشقت عنان السماء قنابله تاركة وراءها ذيلاً من الضوء وكأنها نجم هادٍ . ثم طلبت من رجالي الاقتصاد في الذخيرة والتصويب بكل دقة لأن ما لدينا من ذخائر لا يكاد يكفي حاجتنا في هذه الظروف . ان رجالي شباب صغار السن ولكنهم يتصرفون كما يتصرف أولئك الذين مارسوا الحروب والمعارك ، وقد سمعتهم عدة مرات يتحدثون أثناء المعركة غير آبهين أو خائفين مما كان يدور حولهم . لقد سمعت أحد شبان سيسيليا يقول : « سأري هؤلاء الزنوج ماذا أستطيع أن أفعل بهم » لأنه يعتقد أن الأتراك سمر البشرة مثل العرب . أما شاب آخر فقد رأيته يثور من الغضب لأن بندقيته لم تلائم مناورات تصويبه فرماها وخطف بندقية زميل له . وبدأ القتال يخف بيننا وبين الاتراك بعد نصف ساعة من الزمن ، واختفى الاتراك . واعتقدنا أنهم ينوون الانضمام على أطرافنا فانقسمنا إلى قسمين حتى نعزز المناطق التي اعتقدنا أن دفاعها ضعيف . ولكن الاتراك فروا وتعالى صياح بحارتنا منادين « هيا إلى الامام يا رجال غاريبالدي » وكان منظرهم كمنظر أطفال المدارس عندما يخرجون من حجرة دراستهم ، ثم التحق بهم مئة بحار آخرون من طرابلس للاحتياط . لا يهمنا ما يحدث ان رجالنا مستعدون لكل طوارىء وكل ظروف .

وهدأ الميدان مع طلوع الفجر وعاد الهدوء ، وتراجع الاتراك من المعركة . ولما بزغ النهار زرنا مكان الاتراك فوجدنا بعض الجثث وجريحاً واحداً من رجال المشاة مرتدياً بدلة كاكي جديدة . وقد وقع هذا التركي جريحاً لأن رصاصة مزقته بكل سهولة ، لكن حالته غير خطيرة . وقدمنا له سيجارة ودخنها . أما نحن فقد خسرنا ثلاثة جرحى وقتيل واحد فقط ، هو أحد البحارة . ولا يزيد

عمره عن ١٨ سنة وهو أول قتيل إيطالي في هذه الحرب . انه من مواطني نابولي من أسرة كلها بحارة . ودفناه في هذه الصحراء تحت شجرة نخيل ، ونصبنا عليه صليباً من سعف هذه النخلة ، ويعد صليبنا هذا أول صليب يرفع في الصحراء الاسلامية .

وهناك ضريح « مرابط » على مقربة من قبر الجندي الإيطالي .. وقد لعب هذا المرابط دوراً كبيراً في الايام الاولى من قصف طرابلس ، لأن الأتراك روجوا إشاعة تقول : إن هذا الولي سيرد قنابل ورصاص المسيحيين . ولكن ها هي الظروف تثبت أن روح هذا المرابط قد ربطت طلقات الاتراك في منتصف مداها .

لقد استطاع ألفا بحار أن يسيطروا على المدينة والواحات المحيطة بهـا لمدة سبعة أيام وليال ، وصدوا عدة هجومات عليهم حتى وصلت الامدادات التي كنا نحتاجها من إيطاليا ، وأصبح رجالي بعد ترك سفنهم جنوداً تتمثل فيهم روح غاريبالدي بمعنى الكلمة ، وعملوا بكل إخلاص بدون شكوى أو مضض. ولا يعرف أحد كيف ومتى أكل هؤلاء الأبطال أو متى استراحوا . انني أرى الارهـــاق على وجوههم ولكنهم لا يعترفون بذلك . انهم أبطـال من كل المهن : حدادين ، وكهربائيين ، ونجارين ، وهم صغار في السن أيضاً ولا زالت عيدانهم طرية ، لكنهم يحاربون كأن الحرب قـــد حنكتهم وعلمتهم تحمل المشاق . إن عددهم لا يزيد عن ألفين ولكنهم استولوا على طرابلس والمناطق القريبة منها ضد عرب غدارين وضد غارات الجيش التركي النظامي الذي يفوقهم عدداً وعدة قبل أن تصل قوات أخرى لشد ازرنا من ايطاليا . والآن أخيراً حان الوقت لنعود إلى سفننا وحياة البحر . وتوجهنا نحو الشاطىء ، واصطف البحارة ، وجاء الوالي إليهم وألقى فيهم الكلمة التالية :

« إن كل فرد منكم يستحق أعظم الشكر والتقدير والشرف لأنـــكم صمدتم

مدة سبعة أيام كاملة وتحملتم أشد المتاعب وأظهرتم بطولة فائقة في صد هجمات العدو . ان قائدكم يستحق شكراً خاصاً لأن وجوده بينكم باستمرار بعث فيكم روح الاخلاص والشجاعة » .

ولما انتهى الوالي من إلقاء كلمته هتف البحارة في صوت واحـــد « تعيش ايطاليا » وكرروها مراراً وتكراراً . والتحق بهم الجنود ايضاً ، وعزفت فرق الموسيقى نشيدنا الوطني وحياه الضباط وبدأ رجال المشاة يتوجهون الى الخنادق التي كنا ندافع عنها . اننا سوف لن ننسى أيامنا الأولى بطرابلس .

الفصل الرابع

في طريقنا الى بنغازي

لقد قضينا فترة ٢٤ ساعة للراحة على ظهر بواخر الأسطول ، ثم بدأت الباخرة التي كنت بها رحلتها نحو بنغازي ، عاصمة برقة ، وبرفقتها ثلاثة زوارق طوربيد لقطع رحلة طولها ستمئة ميل من طرابلس . وقد كان البحر هائجاً طوال الرحلة ، وكان من الضروري أن تخفض الباخرة سرعتها من آن إلى آخر حتى تلتحق بها الزوارق التي لا تتلائم معها في السرعة . ولما أشرفنا على الخمس اقتربنا من الشاطىء لأن هذه المدينة لا زالت غير إيطالية ، وكان هدفنا أن نري العرب اننا مستعدون لحماية بني وطننا المقيمين هناك إن فكروا في الاعتداء عليهم . وحاولنا معرفة أي أخبار عن وكيل القنصل الإيطالي الذي سمعنا أثناء إقامتنا في طرابلس انه قد قتل . ورأينا منزله ، ولكننا لم نر العلم مرفوعاً . فأطلقنا صافرتنا وانتظرنا منه الرد . ولم يرد . ولم نر إلا مجموعات من العرب تأتي نحو رصيف الميناء ، ولم يكن أمامنا مجال لعمل أي شيء إلا الاستمرار في رحلتنا إلى بنغازي. وتأسفنا أنّ قتل وكيل قنصلنا قد أصبح حقيقة الآن .

ولما أصبحنا على بعد ثلاثين ميلاً من بنغازي رأينا بعض القطع البحرية مكونة من خمس سفن وثلاث بوارج وأربعة عشر زورقاً من زوارق الطوربيد تحمي عشر سفن من ناقلات الجنود . وقد أتت هذه القطع من ميناء أغوسطا في سيسيليا وكانت متجهة كلها نحو بنغازي تحت قيادة الأدميرال أوبري قائد عام

الأسطول الايطالي، المشهور ببلاغة الحديث والاعتدال والمجاملة . والتحقنا بها ، وسرنا إلى بنغازي عاصمة برقة الجميلة التي لا يزيد سكانها عن ٢٠ ألف نسمة .

ولم نبحر طويلاً حتى لاحت لنا بنغازي ومآذن مساجدها ومبانيها ممتدة على طول واجهة المدينة، يتوسطها مبنى أحمر اللون تحيط به منازل صغيرة . وإن أجرى المرء مقارنة عاجلة بين بنغازي وطرابلس يرى بنغازي أجمل من طرابلس، لأن طرابلس عارية من الخضرة بعكس الوضع في برقة ، حيث النبات منتشر في كل بقعة . وقد استعجلنا فرفعنا نظارات الميدان ورأينا أعلام الدول مرفوعة من بينها العلم التركي نفسه ، لأن بنغازي لا زالت مدينة غير إيطالية . وتجمع بحارة سفينتنا على ظهرها وخيم علينا السكون وشعرنا بالحسرة .. لأننا تذكرنا ما قد يحل بالإيطاليين المقيمين في بنغازي و كيف سيكون مصيرهم، خاصة واننا لم نعرف عنهم شيئاً منذ عشرة أيام .

الفصل الخامس

القنصل البريطاني ببنغازي

أمرني الأدميرال بالنزول إلى الشاطىء يوم ١٨ أكتوبر برفقة ضابط آخر لكي أسلم الانذار الى المتصرف وأطالبه بالاستسلام. وتوجهت ورفيقي حتى أصبحنا على مقربة من مبنى الجمارك. توقفنا هناك وأرسلنا إلى رؤساء البعثات القنصلية حتى نلتقي بهم في مؤتمر قصير. ومضت ساعة دون أن نستلم أي رد، وفهمنا فيما بعد أن المستر جونز قنصل صاحب الجلالة البريطانية اجتمع بالقناصل للنقاش. ولم أستطع قط أن أفهم لماذا أثار طلبنا الاجتماع بهؤلاء القناصل موضوع التناقش والتشاور، لأني أعتقد أن ظروف الموقف وخطورتها تفرض على هؤلاء الممثلين الاذعان لطلبنا وتلبية رغبة الاجتماع بهم. وأخيراً أقبل المستر جونز والمسيو لانكونتور قنصل فرنسا، وأعطى قنصل فرنسا حق الأولية للقنصل البريطاني لأنه أقدم منه. انهما رجلان قصيران ومعهما حراسهما. وبينما كان القنصلان يقتربان من مكاننا رأيت بعض البدو المسلحين بالبنادق سائرين في ميدان الملح، وسمعت نساء العرب يزغردن تشجيعاً لهم. ولما اجتمعنا بالقنصلين أعلمناهما بالإنذار الذي سُلم إلى المتصرف وأفهمناهما أن وقت هذا الانذار سينفد بحلول الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، وما لم ترفع بنغازي علماً أبيض كدليل على الاستسلام فاننا سنضطر لبدء فرض عمليات الانزال العسكرية بالقوة.

وقد وقعت حادثة أمامي بينما كنت أطلب من القنصلين أن يبذلا كل جهدهما لإقناع المتصرف بالاستسلام حتى نتفادى إزهاق الأرواح والتخريب والقصف،

أوثبتت لي هذه الحـــادثة عدم جدوى محاولاتي . لقد رأيت عدداً من الأتراك يحملون المئات من الجوالات الفارغة ويملؤونها بالرمل في ميدان الملح ، ويقيمون فيها مراكز دفاع مضاعفة الجدران ممتدة من القنصلية البريطانية إلى ميدان الملح، استعداداً لعرقلة محاولة الانزال في تلك المنطقة. انهم رجال بسطاء على أي حال ، فهم يؤمنون بالتحصين بالرمال في زمن تقدمت فيه المتفجرات وأصبحت قادرة على هدم أشد الحيطان قوة . وقــد نبهت المستر جونز الى الخط الذي به قنصليته وأفهمته أنه إن بدأنا عمليــة القصف فسيكون على القنصلية البريطانيــة السلام والوداع لمن قد يكون بداخلها . إلا أن المستر جونز لم يفهم ما قلت له ، لأنه رجل يتكلم ألسنة الترك والعرب والفرس لكنه لا يفهم ولم يفتح في حياته كتاباً عن لغة الحرب ولا يعرف ان ما نسميه من المدافع « رضيعاً » يبلغ عياره ١٢ إنشاً .. وسيشترك في عمليات نهار الغد . إن جهله للأمور هو الذي يجعله لا يأبه بنصيحتي له . ولا يقع لوم تعرض القنصلية البريطانية لقنابل الأسطول على أي شخص سواه . ولا تعدو صيحات المتطرفين من أعضاء مجلس العموم الذين صرخوا ضد ما سمّوه بالإهانة الإيطالية للعلم البريطاني عن كونهـــا صيحات مجحفة ضدنا .

الفصل السادس

الاستيلاء على بنغازي

لقد كان صباح يوم ١٩ اكتوبر مملوءاً بالغيوم وكل شيء حولنا هادىء ساكن، ولا يمكن أن يصدق المرء ان الحرب ستبدأ لتكسر هذا الهدوء بعد ساعة أو ساعتين من الآن. ولكن يصدق المرء كل شيء .. لأننا لم نر علم الاستسلام مرفوعاً على قلعة المتصرفية . وقد اجتمع أعيان بنغازي ليلة البارحة لمناقشة القرار الذي سيتخذونه ضد الانذار. واقترح العرب الاستسلام دون أي قتال، لكن شاكر باي التركي أصر على عدم الاستسلام والقتال حتى الموت . وبدأت بوارجنا للاستعداد وزادت حركات زوارق الطوربيد بينها، وهاج البحر فجأة. وفي تمام الساعة الثانيه صباحاً أطلقت البيرازالييري مدفعيتها على التحصينات التركية ، وردت بنادق الأتراك والتحقت بها مدفعيتهم . ولكن جميع طلقاتهم وقعت قبل مواقعنا . وامر الادميرال أوبري بالتركيز على مدفعية الأتراك فاسكتناها في خلال نصف ساعة من الزمن . وبعد اسكاتها ركزنا القصف على قرية البركة الواقعة في غرب المدينة حيث شاهدنا معسكراً تركياً كبيراً . وانهالت المدافع على تلك المنطقة تقصفها بكل حدة، وصدرت الأوامر للزوارق لشق طريقها نحو الشاطىء حتى تمهد لا تزال فرق المشاة . وقدرنا قوة العدد بألف جندي تركي وثلاثة آلاف من العرب . ولاقتنـــا صعوبات كالمستحيلات ضد الانزال ، فالأتراك محصنون في خنادق قوية على بعد ٣٠٠ ياردة فقط من الشاطىء ، والمنطقة التي نريد الانزال بها خالية من كل وسائل التغطية الطبيعية وليس بهـــا شيء إلا بعض شجيرات

النخيل المبعثرة هنا وهناك. ولم يجد البحارة بداً من الامتداد في زوارقهم واحداً فوق الآخر حتى يتفادوا رصاص الاعداء . وكان المطر ينهمر بغزارة والبحر في أعنف هيجانه ، ولكن رجالنا حققوا المعجزات ورموا بأنفسهم في البحر على بعد خمسين ياردة من الشاطىء وتقدموا تحت رصاص عدوهم. وقد جرح منهم من جرح ، لكنهم استمروا في تقدمهم واندفعوا نحو الشاطىء أزواجاً وأفراداً وملؤوا أكياس الرمل وبدأوا في إطلاق النار على العدو . وقد كانت الفرقة التي أقودها أولى الفرق التي نزلت على ساحل جليان ، ولم تمض إلا نصف ساعة من الزمن حتى كانت الفرق الست المكلفة بالنزول على الشاطىء مستعدة لتغطية إنزال فرق المشاة والمدفعية . وامتدت جبهتنا حتى أصبحت ميلاً كاملاً واندلع قتال عنيف ، وكان هدفنا هدفاً واضحاً جداً وهو أن نهزم العدد من مواقعه الحالية ثم نهاجم البركة من الناحية الامامية والناحية الجانبية . وكلما تقدم رجالنا في زحفهم وبناء خنادقهم قصرت المسافة التي تفصلنا عن الأتراك حتى أصبحت أخيراً لا تزيد عن مئة ياردة . وجاء منتصف النهـــار والقتال لا زال مستمراً ، واستطاع رجال المشاة التوسع في طرفنا الأيمن ، ولا زالت مدفعيتنا تتناوب اطلاق النار مع مدفعية الاتراك . وبدأت عبارات « أملأ بندقيتك » و « اطلق النار » و « هيا يا رجال غاريبالدي » تتردد في كل مكان . وكم من مرة صحت فيها لرجالي «افانتي سافويا»!واندفعنا دفعة رجل واحد نحو خنادق أعدائنا . وتقهقر الاتراك وتراجعوا إلى خطوطهم الثانية التي تبعد حوالي ٣٠٠ ياردة ، ووقع أمامي أصغر ضابط في فرقتنا واسمه بيانكو قتيلاً لأن رصاصة اخترقت صدره ومزقته وهو على بعد خطى من خنادق العدو . ولم يكن لدي وقت لوداعه ولكني رأيت ابتسامة تعلو شفتيه . ووقع بحارة آخرون حولي في هذه الساعة الحالكة ، ولكننا كسبنا خطوط الأتراك الامامية ؛ ومضت ساعة من القتال المر قبل أن نحتل الخطوط الثانية . وهنا تمكنت كل قواتنا من الاشتراك في القتال،وأصدر الجنرال اميليو الاوامر بألا نتقدم لأي مسافة أخرى زيادة عن المواقع التي نحن فيها الآن حتى نعطي مجالاً لفرق المشاة لكي تنضم على

الهدف،فانتهزت الفرصة لإصدار أوامر إعطاء الشرف العسكري لبيانكو الذي لفظ أنفاسه الأخيرة .

وبدأت فرق المشاة في تحويش العدو أمامها نحو الموقع الذي اخترناه له..وتم تنفيذ الانضمام حسب الخطة التي كانت مرسومة له مقدماً ، ولاحت لنا خطوط فرق المشاة الثلاثة مطروحة في شكل مروحة وهي تنفذ مخططها .

وفي الساعة الثالثة مساء أصدر الجنرال اميليو أوامره لفرق البحرية التي تكوّن الجناح الأيسر بمواصلة الزحف والتقدم نحو عنق أرضي يواجه معسكرات البركة طوله حوالي نصف ميل وعرضه لا يزيد عن مئتي ياردة . وبدأنا زحفنا ولكن تحت ظروف شاقة ، لأن المـــاء كان يحيط بنا من الجهتين والأتراك يمطروننا برصاصهم. واستغرق قطع ذلك العنق ساعتين كاملتين ، وسقط جميع ضباط فرقتي قتلى أو جرحى ، ولم ينجُ منهم أحد إلا أنا لمعجزة ما . وأصابت إحدى قنابل المدفعية معسكر البركة وقسمته الى قسمين..وانزلت احدى طلقات البيرزاليري العلم التركي ، وكانت تلك إشارة خير لنا .

وقد انضم الآن رجال فرقتي لبعضهم البعض على مقربة من المشاة وأصبحنا نسمع هذه الفرق هاتفة : « يعيش الاسطول » وهي ملتحمة في حمى المعركة ، حتى تعبر عن شكرها وتقديرها للمجهودات التي قدمناها تسهيلاً لعمليـــات انزالها . وردت فرق البحرية « يحيى الجيش » وبدأ البحارة والجنود يقاتلون جنباً إلى جنب كأنهم اخوة . وبدأنا نسمع من حين إلى آخر بعض المقاطع من أغاني نابولي يرددها المحـاربون . وسقطت مواقع البركة وانسحب الاتراك إلى سيدي يونس ، وحققنا الآن الهدف الرئيسي لنا ورفعنا علم الفرقة الرابعة من المشاة على المعسكر وأطلق الأسطول مدافعه تحية له .

وخيم الليل على بنغازي وبدأت الاضواء الكشافة في اللمعان في فترات معينة مضيئة الآن جزءاً من المدينة وأنا آخر جزءاً آخر منهـــا لتترك الجزء الاول يسيطر عليه الظلام . وتخيلنا ان ذلك النهار الشاق قد انتهى لولا ان المدفعية

قد زأرت من جديد إلى الساعة الثامنة. فتساءلنا ماذا حدث ؟ ماذا رأت عيون أسطولنا الساهرة؟ هل إن هذه العيون اكتشفت خطة للهجوم علينا من قبل العدو؟ وتوالت طلقات المدفعية وزاد صداها ، وكنا نعتقد أن بدء القصف من جديد يهدف إلى تأكيد سيطرتنا ، لأن وقعه الآن أقوى من معارك النهار .

إن القصف الليلي منظر رائع هائل ، لأن لمعان بريق قنابله واختلاف ألوانها أعظم من أروع الالعاب النارية . ولم تتوقف بواخرنا عن قصف بنغازي في تلك الليلة إلا بعد عشرين دقيقة «طيبة» ، لأن هذه المدينة لم تستسلم حتى الآن. ثم عاد السكون ولم يزعجنا شيء طوال الليلة إلا تركيز الضوء الكاشف على مبنى المتصرفية حتى تم رفع علم الاستسلام .

ها هي بنغازي قد استسلمت الآن !

وكتب أحد البحارة التابعين لفرقتي الرسالة التالية إلى والدته :

« لقد ارتمينا في المعركة بكل قوة، نطلق النار من بنادقنا ومدافع الأسطول من وراءنا حتى تراجع الأتراك من أول خطوطهم إلى الخطوط الاخرى. زحفنا وراءهم وطردناهم من خطوطهم هذه أيضاً حتى حوشناهم الى الجسر الذي يقابل البركة. وهناك جرحت مثلما جرح آخرون من زملائي في السلاح. واختلطنا بالأتراك واندلع القتال بيننا وبينهم، ووجدت نفسي بين ثلاثة من الاتراك الذين كملت ذخيرتهم، فأطلقت عليهم النار وأسقطت أحدهم . وثرت، وغمرني شعور بالفرحة وزاد تعطشي للدماء كالحيوان الهائج. ولم أتوقف عن اطلاق النار إلا بعد قتل الاتراك كلهم . ورأيت تركياً آخر ولكن بندقيتي كانت فارغة فهجمت عليه بالسلاح الابيض . ووقعت معركة بيني وبينه والتوى على ساقي ولكني لم أفقد الامل، فعبأت بندقيتي ورميته برصاصة في صدره. ووقع قتيلا . وكان الضابط بيانكو منهمكاً في معركة مع العرب وأتينا لمساعدته وبدأنا في اطلاق النار عليهم ولكنهم قتلوه . وتقدم رفاقي نحو الجسر لكن قواي فشلت ووقعت على الارض وحيداً دون أن يراني أحد ، لأن الاعشاب كانت عالية

فغطتني . وبدأت أتوقع أن أموت موت الكلاب يا أمي العزيزة ، ولكن رجال الصليب الاحمر اكتشفوني في صباح اليوم التالي وحملوني إلى المستشفى على ظهر الباخرة ريجينا ماركاريتا حيث اعتنوا بي عناية كاملة . وكانت الاميرة هلينا ، دوكة آووستا ، إحدى الممرضات التي أشرفت علي . انك لا تتصورين كم لطيفة هي ، وكم بسيطة في أخلاقها ! انها مثل أي ممرضة أخرى » .

أما بحار آخر فقد كتب إلى أبيه واصفاً وقوعه تحت النـــار لاول مرة في عمليات الإنزال ببنغازي ، وقد قال هذا البحار في رسالته :

« بدأنا قصف المواقع يوم ١٩ صباحاً وبدأنا الإنزال بعد ذلك بقليل ، وجاء دور انزالي مع احدى فرق الاحتياط بعد بدء القتال ، ولاقانا الاتراك بمقاومة عنيفة جداً حتى تخيلنا اننا قد لا نشق طريقنا . والقتال كالعـادة مر ، ولكن الإنسان يتعود عليه كما يتعود على أي شيء آخر . لقد نزلت ببندقيتي ومعي مئتا طلقة وكأني ذاهب الى التدريب على رمي الهدف . ولكني أذكر الحقيقة فأقول اني شعرت بالخوف لما بدأ اطلاق النار ، خاصة واني كنت مبلل الثياب كلياً . لان المطر كان ينهمر بغزارة . وفجأة وجدت نفسي في بقعة وصل فيها القتال قمته ، وبدأت في اطلاق النار . وأصبح الامر عادياً بعد ما رأيت شحاذاً يرتمي ورجلاه في الهواء وتلاه شحاذان آخران . ولم أشعر بنفسي كما كنت أشعر سابقاً إلا بعد أن انتهى القتال ، أي بعد انتهاء ثمان ساعات » .

الفصل السابع

زيارة بنغـــازي

ان استسلام بنغازي لم يكن من ضرب الخيال لان قواتنا التي دخلتها يوم ٢٠ اكتوبر لم تلاق أي مقاومة في طريقها . وانسحب العرب والاتراك منهـــا الى المرتفعات التي تحيط بها على بعد ميل أو ميلين جنوباً .

وذهبت الى بنغازي في الصباح الباكر ، وكان هوتيل برقة « سيرينايكا» أول مبنى أصله . انه اسم كبير لداخل حقير ، ويشرف عليه أحد الإيطاليين . وعلى مقربة منه تقع القنصلية الفرنسية ثم القنصلية الإيطالية التي أصابتها المدفعية . وما إن وصلت إليها حتى دخلتها ، فاستقبلني الحارس وأعلمني أن بداخلها عشرة قتلى وعدداً كبيراً من الجرحى ، وان عدداً من الإصابات قد وقع في قنصليات أخرى . ثم التقيت بالمسيو لا كونتور قنصل فرنسا واتجهنا سوياً نحو القنصلية البريطانية لزيارة المستر جونز صديقي نهار امس .

ان طراز بناء القنصلية البريطانية لايختلف عن مباني طرابلس ، أو بمعنى آخر ، انه بناء دائر على فناء بوسطه . وهو يتكون من طابقين يحتل المستر جونز الطابق الثاني للسكن والطابق الارضي للمكاتب . ورأينا المستر جونز في الدور الثاني واقفاً قرب السلم الذي تهدم . ودعانا لنصعد له مبتسماً حتى يخفي ما في قلبه من

تذمر وصعدنا، ولما التقيت به قال لي: «لقد قصفتونا» وقادني نحو الغرفة التي هدمتها قنابل المدفعية وهو في حالة غضب. واستمر يقول: «نعم لقد قصفونا. لقد أطلق الإيطاليون النار على العلم البريطاني. سيكلف هذا الاعتداء ايطاليا كثيراً»، فقلت له: «لقد أنذرتك نهار أمس أن التحصينات التركية ستعرض قنصليتك للتدمير، ولو أنصتّ لما قلتُ لك لحاولتَ أن تبعد الاتراك عن ميدان الملح وأكدت سلامة بنايتك» ولكن المستر جونز رفض الانصات لما كنت أقول له، فقال: «نعم ستدفع ثمناً غالياً» وبدأ يقطع الحجرة ذهاباً وإياباً مكرراً نفس العبارة. فقاطعته: «أجبرتنا ظروف الحرب، ويجب ألا ننسى أن واجب القائد العسكري الأول هو أن يؤمن سلامة قواته، أما الاعتبارات الأخرى فهي أمور ثانوية بالنسبة له». وبينما كنت أجاوب القنصل البريطاني دخل عيسى حارس القنصلية وهو مجروح في رأسه، وانفجر مزمجراً ومحدقاً فيّ فكأنه مخبول. إنه يرعش ويرغي كأي عربي، فتساءلت «ماذا يقول؟» فرد علي المستر جونز قائلاً: «انه يشتكي انه جرح بينما كان على أراض حيادية، ويريد الذهاب إلى لندن لرفع احتجاج لدى الحكومة البريطانية». وعاد عيسى إلى التكلم والمستر جونز يترجم ما يقول، ثم بدأ المستر جونز الحديث قائلاً: «لقد جلست لتناول طعام العشاء وكنت مشغولاً جداً كحالة أي شخص عندما تكون أفكاره تائهة في أمر ما، وفجأة سمعت طلقة مدفعية، تلتهـــا أخرى، وأصوات زجاج يتكسر في ميدان الملح. فقمت وتوجهت إلى الشرفة التي تطل على البحر، وسمعت بكاء النساء والأطفال آتياً من الفناء. واتجهت نحوهم حتى أخفف من خوفهم، لكني توقفت لأن هزة عنيفة قد وقعت بالبناء. فرجعت إلى حيث كنت. ومن هناك شقيت طريقي إلى غرفة الطعام فوجدتها في حالة يرثى لها». وقادني المستر جونز إلى قاعة الطعام فوجدت سقفها قد تهدم وتكومت بداخلها الأحجار والقشور. لقد انحنى أحد حيطانها، وقد يسقط في أي لحظة على

بعض كتب المستر جونز الثمينة الخـــاصة بدين الاتراك والفرس والعرب ولغتهم . واقتربت من النافذة فرأيت العلم الايطالي مرفوعاً في مكان العلم الأبيض، وبنفس اللحظة كانت الفرقة الثالثة والستين من المشاة تقطع ميدان الملح يتقدمها الجنرال أميليو . وقررت والمستر جونز أن نخرج ، ولكنه تذكر أن جميع قبعاته قد أصبحت غير قابلة للاستعمال !

إن بنغازي الآن كأنها إحدى مدن الريڤييرا !

الفصل الثامن

ذكرى للتاريخ العسكري

ان معركة بنغازي تعد أهم معركة خضناها في سواحل شمال إفريقيا ، ويصدق من يقول ان اسطولنا قد أمدنا بالمساعدة التي نريدها للانزال، ولكن يجب الا ننسى ان الاتراك كانوا متمركزين في خنادق محصنة تماماً على مقربة من المنطقة التي اخترناها للانزال ، أي منطقة جليانة. وقد ابدى العرب والاتراك بسالة لا توصف وعرف كل منهم كيف يموت في ميدان القتال. وهذا ما يجعل نجاحنا يستحق الذكر ويجعلنا نشعر بالفخر لاننا قهرنا عدواً في ظروف صعبة عنيفة. لقد رأيت الاتراك والعرب بأم عيني يموتون على افواه البنادق ويتوقفون متى انسحبوا لرفع جثث رفاقهم او للتحصين بها واعادة الكرة في القتال ضدنا.

ان المرء يشعر بالاعتزاز لان عملية انزال فرق البحارة في بنغازي تمت بكل دقة من الناحية الاستراتيجية العسكرية رغم ان رصاص العدو كان ينهمر عليها ، وهذه هي عادة الحرب. انها مملوءة بالصعاب والمشاق ، خاصة عندما يكون البحارة شباناً طرايا العود قد أخذ منهم البحر ورحلته كل مأخذ ثم استقبلهم الميدان الحربي حال نزولهم الى الشواطىء. هذا بالضبط كان حال جنودنا وبحارتنا، لقد كانوا في منتهى التعب بعد رحلتهم.. كانوا لا يعرفون شيئاً من البلاد التي هم نازلون فيها وكانوا غائرين على عدو لهم يعرف المنطقة شبراً شبراً. لكن هؤلاء الايطاليين ذللوا الصعاب وقهروا كل العقبات.

وقد تكللت عمليات عسكرية شبيهة بعملية انزالنا ببنغـــازي بالنصر في اركولي في واقرام وفي ابي مير، وفي الدانوب سنة ١٨٧٧ عندما بدأت الحرب التركية الروسية واستطاع الجنرال دراقو ميروف ان يقطع ذلـــك النهر رغم نيران مدفعية الاتراك. الا انني اعود فأقول: ان المقارنة لا تجوز، بل لا تجوز ابداً، لان انزالنا في بنغازي كان من المستحيلات .. لان البحر كان هائجـــاً والعدو يتربص ويدافع عن بلاده . لقد ربح الفرنسيون معركة سيفاتس سنة ١٨٨١ وكسروا خطوط دفاع العرب لان مدفعية الاسطول قصفت هذه المواقع ثم احترق العشب اليابس في منطقة القتال وأعطى غطاء جيداً للقوات الفرنسية المتقدمة ضد العرب .

وهجم اليابانيون على الخطوط الروسية في يوم ٢٤ مايو سنة ١٩٠٤ في مناطق نانشان بعد ان اخترقوا المناطق الوحلية الواقعة على الجنـــاح الروسي الايسر، ولكن القوات الروسية في هذا الجناح كانت اقل عدداً من اليابانيين الهاجمين . أما في جليانة فالأمر كان مختلفاً تماماً وكل الظروف كانت الى صـالح الاتراك والعرب.. فقد كان عددهم اربعة آلاف رجل وكانت خنادقهم محصنة تحصيناً جيداً فاستطاعوا هم ان يمطروا قواتنا برصاصهم حالما بدأت في النزول . وكان العنق الارضي الذي اردنا الوصول منه الى البركة يبعد حوالي ميلين عن الساحل وطوله يقارب الميل ويختلف عرضه في النهاية حتى لايكاد يتجاوز اربعين ياردة، ووراءه معسكرات البركة التي تحيط بها المنازل . وحصون الاتراك والعرب انفسهم فيها تساعدهم المدفعية الثقيلة ضدنا وقد كان من الضروري الاستيلاء على ذلك العنق الارضي حتى نستطيع ان نزحزح الاتراك والعرب من البركة . وقد كسب الجنود الايطاليون ولكنهم دفعوا دماءهم ثمناً للانتصارات .

ان انزالنا في بنغازي يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٩١١ سيبقى من معارك التاريخ العسكري .

الفصل التاسع

حملة السلطان

قضينا يوم ٢٠ اكتوبر كله في بنغازي ، وعدنا إلى سفننا يوم ٢١ من نفس الشهر ، والتحقت بنا في نفس اليوم زوارق الطوربيد التي كانت مكلفة بحراسة سواحل ألبانيا تحت قيادة ركيبوك ابروتزي . واجتمعنا بعد تناول العشاء في أحد الصالونات حول الضابط پ بطل معركة برفيسا البحرية التي وقعت يوم ٣٠ سبتمبر ١٩١١ . وبدأ هذا الضابط يتحدث إلينـــا ويوزع علينا سجائراً حجم الواحدة منها كالاصبع . وكان يمتلك منها مئات العلب ، لأن قواتنا استولت عليها من اليخت الملكية . وقد قال لنا هذا الضابط « لقد عرفنا ان بعض بوارج العدو كانت غير قادرة على الانسحاب إلى الدردنيل أسوة بزميلاتها من الأسطول التركي والتجأت إلى ميناء برفيسا المحصن،واعتقدنا أن هذه البوارج ستتحرك لشل حركة سفن نقل اسطولنا ، فقررنا أن نتخلص من هذا الخطر . وأصدر قائد زوارق الطوربيد صاحب السعادة الملكية لويدجي سافوي الأوامر إلى فرقتنـا ببدء الهجوم وأسر وتحطيم سفن العدو هناك.وبدأنا في تنفيذ المخطط. وأبحرت معنا البارجة البيني لكي تطارد باخرة النقل التركية نيڤا التي كانت محملة بالأسلحة والجنود وكانت تحاول النجاة . واستولت الالبني على الباخرة التركية وقادتها الى ميناء تارانتو.أما البارجتان الاخريان فقد استمرتا معنا إلى برفيسا. وبعد أن اقتربنا من هذا الميناء ، قرر الضابط بيسكاريتي أن يستكشف هذا الميناء عن طريق إنزال بري سري..لأن الميناء لا يرى من البحر.ولا شك ان انزال بعض

الرجال للقيام بهذا الاستكشاف عملية صعبة جداً، لأن المنطقة جبلية ولا بد أن يتسلقها المرء تسلقاً دون أن يراه أحد حتى يصل إلى الساحل الألباني ويستعمل نظارات الميدان لمعرفة مياه ذلك الميناء. وتسابق ضباطنا كل يريد أن يكون من المختارين لهذه المهمة. ومن حسن الحظ أن وقع الاختيار علي، لأني أعرف السواحل الألبانية بعض الشيء وأفهم اللهجة المحلية. فتقدمت بواخرنا إلى حوالي مسافة ميلين من الشاطىء قرب جبل يبلغ ارتفاعه حوالي ألف قدم ومشجر تشجيراً كثيفاً. ولبست ملابس مدني بدون ربطة عنق وأخذت قبعة عريضة، ونزلت الى زورق به أربعة من رجال اتجهوا بي إلى ذلك الجبل الذي كان من واجبي أن أتسلقه، وكانت الشمس آنئذ قد بزغت من ورائه لتوها. ونزلت وبدأت أبحث عن فلاح، وأخيراً وجدت أحد الفلاحين. ودفعت له مبلغاً سخياً لكي يؤجرني حصانه ويرشدني إلى الطريق التي تؤدي إلى قمة الجبل. وبدأ هذا الفلاح يسألني عدة أسئلة، ففهمت أنه شك في أمري وبدأ يخاف من مهمتي. وخشيت أن يخونني ويقودني إلى جهة غير الجهة التي أريدها. وعلى أي حال قادني في طريق تخيل للمرء انها لا تؤدي إلى قمة الجبل أبداً. وفجأة رأيت رجلين من رجال الجندرمة الاتراك. وكانت اللحظة لحظة حاسمة وتظاهرت بالصمود.. ولكن أفكاري حالاً ذكرتني بوجود مسدس معي استعديت لاستعماله. لكني لم أر ضرورة لذلك. وأنتهت فترة الإحراج، وسألني أحدهما: «ما هي جنسيتك؟ وإلى أين ذاهب؟» فأجبته «يوناني في طريقي إلى قمة الجبال» ولكنه عاد يسأل «ما هي الآلة التي تحملها ومـاذا تفيد؟» فقلت له: «آلة أنظر بها المناظر الخلابة!» وسألني «وتلك السفن هل هي سفن إيطالية؟» فقلت له: «لا انها سفن نمساوية، انظر إلى أعلامها!» وهنا قال لي: «حسناً إذا، تصحبك السلامة، وأتمنى لك رحلة سعيدة» وعاد إلى مكانه يدخن نرجيلته وهو مقتنع انه التقى بأحد السياح لا غير.

وسار بي البغل سيراً بطيئاً رتيباً وحوافره تدق الارض، والفلاح يتبع خطانا. واخيراً بلغت المراد وظهر لي ميناء برفيسا على بعد ستة اميال ومياهه

الفضية ،ورأيت كل شيء وشكراً لمنظاري وصفاء ذلك اليوم. وشرعت في الحال ارسم خريطة بسيطة لذلــك الميناء ومواقع سفن العدو التي كانت مرابطة فيه وهي مكونة من زورقي فوربين ومدرعة ويخت عليها عدد من البنادق والمدفعية. وانتهيت من المهمة ، ولكني قررت الا انزل من نفس الطريق التي جئت منها ، وفضلت النزول من الجهة الثانية لانها تراءت لي اقصر من الطريق الاولى . وقد سبق لي ان تخلصت من الفلاح الذي رافقني الى هذه الرحلة ، ولكن ما ان بدأت في النزول حتى ظهر وهو يصرخ ورائي « اوقفوه ، اوقفوه ، اوقفوه انــه جاسوس ». وسمعه السكان الذين كانوا ايضاً شاكّين من جراء وجود السفن قرب الشاطىء وبدأوا في اطلاق النار . وظهر على بعد ثلاثمئة ياردة مني رجــل الجندرمة ، وبدأ يجري في محــاولة لالقاء القبض عليّ . ولكني اعتمدت على خبرتي في منحدرات جبال الالب ونزلت بأسرع ما يمكن إلى الشاطىء وركبت الزورق الذي كان في انتظاري . ولما توغلنا مسافة ميل في البحر وصل الجندرمة الاتراك واطلقوا نار بنادقهم فأجبناهم بالمثل وانتهى كل شيء .

ولما سلمت تقريري قرر الضابط بيسكاريتي ان نبدأ العمليات في الحــال ضد سفن العدو في مينــاء برفيسا . وركزنا المدفعية على الاهداف حسب المعلومات والخريطة التي جئت بها واطلقناها،وكانت طلقاتنا فعالة جداً.ولم يرد الاتراك لاننا اصبناهم . وتسبب بدء قصفنا المفاجىء في نشر الفوضى بين البحارة الاتراك ولم نعطهم فرصة الا في محاولة النجاة بأنفسهم..وبدأت مدمراتنا تبحر نحو الميناء.وكنا نتوقع ان يتصدى لها الاتراك في اي لحظة ولكننا فوجئنــا بسكوتهم التام . ثم أمر بيسكاريتي البارجة ارتيقيليري بالتوقف واستمرت الاخرى – كاراتزيري – في سيرها . وتأكدنا الان ان السفن التركية محطمة ولا تستطيع المقاومة ، بل كانت اثنتان في حالة الغرق والثالثة تشتعل بهــا النيران .. لان ذخائرها انفجرت . ودخلت البارجة كاراتزيري حتى اقتربت من اليخت ويا لروعة تلك اللحظة ! واجتمع بعض الاتراك على شاطىء الميناء ثائرين وملوحين بأيديهم في وجوه رجالنا : وتوجهت ثلاثة من زوارق البارجة

مملوءة بالرجال الى تلك اليخت التي لا زال العلم التركي يرفرف عليها ،وصعدوها وفتشوها تفتيشاً كلياً واتضح ان رجالها هربوا منها .

إن ما نقوله قد يعد من ضرب الخيال ، ولكنه الواقع بعينه . ان رجـــال البحرية التركية لا يعرفون معنى كلمة « الشجاعة » ، ولا يشعرون بوخز الضمير في مواقف الجبن ، وما اندماجهم الآن بالعامة على الشاطىء لتهديدنا إلا عمل لا فائدة فيه . ولما رأونا بادئين في جر يختهم الملكي نحو عرض البحر اطلقوا علينا نيران بنادقهم بكل شدة وأصبحت حياة بحارتنـــا في خطر داهم . فأصدرنا الأوامر للمدفعية لترد عليهم ، وزأر أحد مدافعنا في المنطقة التي يأتي منهـــا الرصاص وبها التجمهر،ولم تمض إلا لحظات قليلة حتى كان عشرات من المتجمهرين مرميين على الأرض ، فيما هرب الباقون وتحصنوا بالمنـــازل القريبة واستمروا في إطلاق النار علينا . وهنا أصدر ضابطنا الأوامر لرجالنـــا بالعودة إلى أماكنهم وبقي هو،رغم جرح في ساقه ، واقفاً على ظهر البارجة .ورفضت تركه وحيداً، وأبحرت الكورانزبيري بجائزتها اليخت الملكية .

إن هذه العملية الناجحة لم تستغرق من الوقت إلا خمسين دقيقة من بدايتهـــا حتى مغادرة بارجتنا الميناء .

وبعد خروجنا من الميناء أنزل البحارة العلم التركي ورفعوا العلم الإيطالي عالياً في محله ، ووجدوا هلال العلم التركي قد اخترقته ما لا يقل عن عشرين رصاصة ، ثم احتفلنا بعلمنا بزجاجات الشامبانيا التي وجدناها على ظهر اليخت الملكية !».

الفصل العاشر

احتلال طبرق

في نفس يوم ٥ اكتوبر سنة ١٩١١ الذي هاجمنا فيه طرابلس تحت قيادة الادميرال نيراڤيلي ، هاجمنا ميناء طبرق ومدينته تحت قيادة الادميرال أوبري، وهكذا كان احتلال المدينتين في نفس الوقت. وبقيتا في قبضة رجال البحرية حتى وصل بديلها من قوات المشاة . وقد وصل المشاة طبرق يوم ١٠ اكتوبر وبدأوا في تحصينها ، وعاد البحارة الى سفنهم .

إن ميناء طبرق واقع في شبه جزيرة يمتد لحوالي ميلين ونصف ، ومدخله واسع لا تعرقله أي صخور، ويتراوح عمق مياهه ما بين ١٥و٢٠ياردة. وهوصالح لاستقبال أكبر السفن، ويعد من أفضل – إن لم يكن أحسن – المواني الموجودة في شمال إفريقيا ويمتاز بعمقه واتساعه. ومن ميزاته انه محميّ من الرياح من جميع الجهات وتحيط به سلسلة من الجبال ، وقد سبق لأسطول نيلسون ان دخل هذا الميناء .

وقد توقع الرحالة شفايفورت لميناء طبرق مستقبلا زاهراً ، لأنه يقع في مركز حيوي بين مالطا والاسكندرية ، فهو على بعد ١٧٣ ميلاً من كريت و ٢٧٦ ميلاً من شواطىء اليونان و ٥٤٠ ميلاً من مالطا وساراكوزه وسالونيكا . وان الدولة التي تسيطر عليه تسيطر على شرق المتوسط .

الفصل الحادي عشر

احتلال الخمس

احتـــل الإيطاليون الخمس يوم ٢١ اكتوبر ١٩١١ ، وهي مدينة مهمة على البحر الابيض المتوسط تبعد حوالي ستين ميلاً من طرابلس. وقبل أربعة أيام من هذا التاريخ كانت البارجة فيريس وزورق الطوربيد آربيا يحرسان اربع سفن من سفن النقل العسكري الخاصة بالجنود تحت قيـــادة العقيد ماجيوتي المتجهة نحو ميناء الخمس. وفي الساعة السابعة صباحاً توجه زورق من زوارقنا تحت علم أبيض الى الخمس لمقابلة الأتراك والاجتماع بحـــاكم المدينة لترتيب شروط الاستسلام . وأعطيناهم مدة ست ساعات، وفي الظهر تماماً جاء رد الأتراك رافضاً الاستسلام. وانتظرنا حتى الساعة الواحدة ثم اطلقنا المدفعية . ونزلت قنابلنا على الشاطىء وطيرت سحباً من الرمـــال والأحجار ، وأصبنا الحائط الجنوبي من معسكر الأتراك وبدأت الحيطان الأخرى تنهار على قلعة المتصرف . ولما بدأنا في اطلاق النار انسحب الأتراك جنوباً إلى جبل المرقب الذي يشرف على المدينة .. لأنهم اعتقدوا أن قنابلنا لن تطالهم هناك ، ولكنها فعلت وهدمت تحصيناتهـم على سفح ذلك الجبل . ورأينا مجموعات من الجنود الأتراك المسلمين فارين نحو سفح الجبل بكامل أسلحتهم ، كما رأينا أحد الضباط الأتراك نازلاً من سفح الجبل بدون أي خوف متجهاً نحو الشاطىء . وبدأنا نراقبه بنظارات الميدان حتى وصل الخنادق وبدأ يفحص الأضرار التي ألحقت بها . وأمر قائد فيريس أحد الجنود بإطلاق النار عليه فصوب نحوه ، لكنه لم يصب في المرة الأولى ، لأن الرصاصة

وقعت حوالي ٢٠ ياردة بعيدة عنه . وكرر الجندي المحاولة من جديد ولم يصب أيضاً ، ففر التركي من المكان إلى ما وراء حيطان القلعة . وحل الليل ولا زلنـا ننتظر استسلام الخمس ، وبدأ الجنود الأتراك والعرب ينزلون من جبل المرقب إلى المعسكرات لأخـــذ الأسلحة والذخيرة والمؤن ، ولكن الاضواء الكاشفة كشفتهم . .وبدأت المدفعية تدكهم حتى دمرت بقايا المعسكر وما قد يكون فيه من عتاد . وفي هذه الأثناء اتصل بنا صديق عربي لكي يعطينا بعض المعلومات عن العدو . ونعت منزلاً من منازل الخمس قائلاً : « هذا هو منزل محمـد لوري عدو إيطاليا اللدود الذي يجوب البلاد منادياً بالمقاومة ضدها » ، فرد عليه قائد فيريس « حسناً سنبعث له تحياتنا إذاً » ، فابتسم المخبر العربي . وقال الضابط «ركزوا المدفع على درجة ٣٢ » وأشار إلى المنزل الذي نعته العربي وأمر باطلاق النار . وبعد ثوان بسيطة مزقت قنبلة ذلك المنزل . وازداد البحر هيجاناً كلما تقدم الليل، وعلت العواصف في يومي ١٩ و٢٠ ولم تهدأ قليلاً إلا يوم ٢١ وبدأت عملية الإنزال ، ولما وصل بحارتنا الشاطىء خطب فيهم ماجيوتي قائلاً :

« تصبح هذه الأراضي إيطالية بمجرد نزولنا بها ويصبح سكانها اخوة لنا ومن واجبنا حمايتهم لأننا من حملة الحضارة والسعادة لهذه البلاد التي كانت رومانية ولكنها انطوت في حياة البربرية . انني أعرف انكم في هـــذه اللحظة الحاسمة تفكرون في بلادنا ومليكها ! وهيا نهتف لكليهما » .

إن الخمس هي لبدة الرومانية، وهي إحدى المدن الثلاث التي اشتق منهـــا اسم طرابلس ، وهي مدينة صغيرة لا يتجاوز سكانها بعض الآلاف جاءوا إليها منذ ثلاثين سنة فقط ، وتعتمد في حياتها على نبات الحلفاء الذي ينمو بكثرة في جبال المرقب ومسلاته وترهونة . وكان يحكمها متصرف تركي يسكن في قلعة كبيرة مبنية من أحجار الآثار الرومانية ، وتحيط بهـا أراض خصبة خضراء جميلة . ويستغرب المسافرون دائماً لماذا اختيرت طرابلس بدلاً من الخمس لتكون العاصمة رغم ان طرابلس لا تمتاز بشيء إلا بالميناء. وتخترق هذه المناطق الخصبة

بعض الجبال التي بنيت على قممها بعض التحصينات ، وجعلت الخمس أقوى من الناحية الدفاعية من طرابلس . والخمس محطة للقوافل القادمة من فزان وبورنو ، ولا شك انها تستطيع أن تكون من المدن المهمة ان تم بناء ميناء لها .

أما لبدة، فقد كانت معروفة باسم نيابوليس أو المدينة الجديدة ، وكانت من أكبر المدن في شمال افريقيا ، وقد بناها فينيقيو صيدون ثم استولت عليها قرطاجنة حتى سنة ٢٠٢ ق.م. عندما وقعت معركة زاما وآلت إلى سيطرة الماسنيسا ، وتحالفت في الحرب النوميدية مع الامبراطورية الرومانية وأصبحت فيما بعد مدينة رومانية . وقد ولد بها الامبراطور سبتموس سيفاروس وأعطاها سلطة القانون الروماني . وفي السنة السادسة عشرة بعد المسيح هاجمها الاسورياني وخربوها ، وبقت مدة طويلة عبارة عن كومة من الخراب حتى أعاد بناءها الامبراطور جوستنيان . ولكن هذه المدينة لم تستطع أن تقاوم الحروب القبلية التي كانت تحدث باستمرار . وفي القرن السابع غزاها العرب وكملوا تدمير ما بقي منها . ولا زال مدخلها الرئيسي واقفاً على ارتفاع ٤٥ قدماً وبجانبه معبد وأربعة أعمدة رخامية ، عثر رجالنا في رمالها على بقايا قنوات المياه الرومانية ومسرحها .

الفصل الثاني عشر

الحرق والاستيلاء على درنة

إن درنة احدى المدن المهمة في ساحل برقة ، وتقع على بعد مئتي ميل تقريباً من بنغازي ، احتلتها القوات الإيطالية يوم ١٦ اكتوبر بعد مقاومة مستميتة . ولم ينو الادميرال بربتيريو الذي قاد الحملة ضدهـا قصفها .. لكن المفاوضات لاستسلامها فشلت .. وحدث القصف البحري . وأراد سكانها العرب الاستسلام إلا أن الاتراك فضلوا المقاومة رغم ان الاسطول أعلمهم أن القصف سيكون شديداً جداً وان نتائجه ستكون خطيرة . وقد انسحب الاتراك من المدينة وبدأوا يستعدون للقتال ، ولم يتركوا إلا بعض جنود المشاة وقطعة مدفعية في المدينة . وفي الساعة ١١,٣٠ من يوم ١٦ اكتوبر أعطت فرقتنا البحرية التي كانت مكونة من البارجة نابولي والسفن بيسا وأمانفي وسان ماركو ومدمرتين إشارة قرب موعد بدء العمليات العسكرية ضد درنة ، وبعد ذلك أطلقت بيسا أول طلقاتها على معسكر الأتراك .

ان درنة نفسها مختفية تحت جبل متصل بجبل آخر ، ويكون الجبلان منخفضاً بينهما تنتشر به المدينة وتمتد حتى البحر . وتقع المنارة على الجهة الغربية منها يعلوها العلم التركي بألوانه الثلاثة : الاصفر والاخضر والاحمر .

وركزت البارجة بيسا طلقاتها الاولى والثانية والثالثة على أمكنة الاتراك و بدأت في تهديمها . ولم يكن بتلك الامكنة أي جنود بعكس ما توقعنا .

واستمرت بيسا في القصف على المنخفض الواقع بين الجبلين، وسمعنا دوي القنابل وصداها كلما وقعت. وأما السفن الاخرى فلم تشترك في القصف، ولكنها كانت مستعدة لأي طارىء. ولم ترد درنة على مدفعيتنا، فتوقفت بيسا عن الضرب في الساعة الثانية عشرة، وبدأت من جديد في الساعة الثانية عشرة والنصف. وأصدر القائد عدة مرات الأوامر بألا نلحق أي ضرر بالمساكن والسكان. وأطلقت بيسا عشر طلقات ثم توقفت انتظاراً لرفع علم الاستسلام على قلعة المتصرف. ولم يرفع العلم. وكان الاستمرار في القصف يعني تدمير المدينة كلية، فتقرر إرسال زورق إلى منطقة المنارة. ولما أبحر هذا الزورق تتبعه الرجال بكل قلق كما تجمهر ضباط الباخرة فافيقنانا على ظهرها وتتبعوا تقدمه بنظارات الميدان. وقد تقدم ذلك الزورق حتى يكشف المنطقة التي أردنا الإنزال بها، ولما أصبح على بعد ١٦٠ متراً من الساحل أطلقت عليه النار فارتد بسرعة نحو الأسطول. ولاحقه الرصاص. فعادت بيسا من جديد للقصف.. ولكن مدافعها الآن كانت منخفضة جداً حتى تكاد قنابلها تلامس سطح الماء حتى تصيب الخنادق التي أتت منها النار. وهنا ردت مدفعية الأتراك.. ولكن قنابلها سقطت في الماء قبل أن تصلنا. وأصدرت القياده الأمر لكي تشترك كل مدفعيتنا في العملية فسُلطت المدافع الكبيرة على درنة. وتوقف القصف بعض الأحيان كي نعرف مدى ما حل بالمدينة من دمار. وعرفنا ان منازلاً قليلة جداً قد نجت من التدمير أما أغلب المدينة فقد تهدم، أما المنازل المطلة على الساحل فقد أصبحت كومة من الأحجار، وتصاعد الدخان من عدة أمكنة، واختفى من الوجود مبنى القنصلية الإيطالية. ولم تتوقف الباخرة سان ماركو عن قصف أحراش النخيل التي كانت تطلق علينا النار فتطايرت جذوعها في الهواء. واطلق الأتراك مدفعيتهم من الناحية الغربية من المدينة من وقت لآخر. وفي الساعة الثانية خفضت السفن شدة مدفعيتها وبدأت في إنزال فرقها، فتم في الحال إنزال ٦٠٠ بحار تحت حماية مدافع هذه البواخر. ورأينا بعض الأتراك يجرون مدفعاً على سفح الجبل.. ولكننا لم نهتم بهم. وتوجهت زوارقنا نحو الشاطىء،

وأطلق الأتراك النار رغم انهم كانوا يعرفون انهم لن يستطيعوا حماية المدينة ولن يلحقوا بالإيطاليين أي ضرر . ولكن خنادق هؤلاء الأتراك كانت محصنة تماماً على الشاطىء ، لأنها مغطاة وتحمي من فيها أفقياً وعمودياً ، ثم هناك مدفعية الميدان الثقيلة بين أشجار النخيل تساعد هذه الخنادق والتحصينات . ولكن بحارتنا لم يأبهوا بكل هذا الاستعداد وشقوا طريقهم تحت حماية مدفعية الأسطول التي كانت تركز على المصادر التي تأتي منها البارود. وزادت مقاومة العدو للانزال، لكنها بدأت تتلاشى بعد نصف ساعة فقط ، إذ فر الأتراك والعرب في مجموعات إلى سفح الجبل ، ونزل رجالنا وبدأوا في بناء مراكز الدفاع .

وبقيت درنة تشتعل حتى غروب الشمس ، إذ انفجر خزان بترول في مجموعة من المنازل وانتشرت النيران الى المنازل المجاورة الأخرى وأحراش النخيل وامتدت السنة اللهب إلى كل ما كان بجوارها . وظهرت مجموعات من العرب على سفح الجبل تراقب النيران ولكنها لم تعارض تقدم البحارة.وتوقفت مدفعية الأسطول الآن عن القصف وخيم على الميناء السكون ، ولكن الدخان ظل يتصاعد من مدينة دمرت ، وإن لم تستسلم بعد . وهذه هي نتيجة تحمس مجموعة من المجانين همها القتال حتى تنال جنة محمد عن طريق الحرب في سبيل رايته .

لقد خسر الأتراك في معركة درنة ١٠٢ قتيلاً وعدة جرحى، وخسر العرب ١٠٠ قتيل ، أما خسائرنا فكانت ٧٠ رجلا .

الفصل الثالث عشر

البحار الايطالي

إن البحار الإيطالي يكلل نفسه بالانتصارات .. ولكن العالم متحامل ضده ويختلق الأكاذيب والدعايات حتى يقلل مـــن أهميته في الاستيلاء على طرابلس ويجحد عليه الاعتراف له بالانتصارات التي نالها بدمه . ان البحار الإيطالي يظهر شجاعة فائقة ويتحمل المصاعب، وكأن الحرب قد علمته شدة المراس رغم صغر سنه وقلة خبرته ، ولا تعني له الموت شيئاً .

ينفذ البحارة الإيطاليون كل الأعمال الشاقة بروح الصبر والشعور بالواجب وهم يمثلون بلادهم في رحلة المدنية المشرفة التي تولتها بغزو ليبيا ، ويدفعهم هذا الشعور إلى الاندفاع إلى فوهات البنادق وهم يغنون ويتقدمون ضد نيران العدو بابتسامة ، ولا يسألون أو يبحثون عن الراحة ، فما إن ينتهي القتال حتى تبدأ الحراسة. إنهم لا يعرفون النوم أو الجوع .

إن البحار الإيطالي إنسان ، قلبه رقيق وطبعه إنساني . ولا يستغرب المرء أن يكون هذا البحار يفكر في فتاة ما ذاهبة الى السوق لتشتري ظرفاً بريدياً وترسله إليه وينسى الحرب .. ولكنه يجد نفسه بعد دقائق فقط . وباختصار ان تفكيره منصب على أشياء صغيرة بسيطة .. ولكنه مستعد لتحقيق العظام من الأمور ان كلـّفته بالسلاح ! ان البحار الايطـالي اليوم يعرف كيف يكرر نفس بطولات رجال جنوا وفينيسيا — أولئك الرجال أجداده !

عيسى يوسف العويشي

القسم الثاني

الفصل الأول

« تحمس الايطاليين للحرب »

لقد احتشدت جماهير من مختلف طبقات الشعب الإيطالي في الشوارع التي ستسير بها قواتنا في نابولي ، وعرفت هذه الجماهير كل المعلومات من الصحافة . لقد احتشدت هناك لساعات وساعات وكأنها مصممة على الانتظار إلى الأبد ، وفجأة بدأت الموسيقى تدق من معسكرات الجيش ورددت أناشيد وأغـــاني البيرزاليبري التي صدحت قبل ٥٦ سنة مضت عندما كان الجنرال لامورا قائدها في تركيرانيا في الحرب الكريمية جنباً إلى جنب مع القوات البريطانيـــة والتي رُددت ابان عمانويل الثاني في سنتي ١٨٥٦/٥٧ وفي سنة ١٨٧٠ في توحيد ايطاليا وجعل روما عاصمة لها .

ولما تحمس الجمهور اشترك عشرون ألف شخص في ترديد هذه الأناشيد مع فرق الموسيقى ، وتعالت هتافات « يحيا رجال البيرزاليبري ، تحيا إيطاليا ، تحيـا طرابلس الإيطالية » وتقدم الشعب بخطى سريعة حتى يتلائم مع سرعة سير فرق البيرزاليبري. .وقطعنا الطريق في أحلام النصر، وسار الجنود مندفعين والشعب متحمس معهم .

وتوقف الركب في ڤياتريفيليو تحت شرفة أحد المنازل بها رجل وقور ذو لحية بيضاء يلوح لنا بمنديله ، وصدر صوت ينادي بالهواء والاستماع ، ثم تقـــدم مقدم وقال: « أيها الرجال،حيوا رئيس مجلس النواب ».وردت الأصوات عليه:

« يحيا الغاريبالدي القديم » فانحنى السنيور ماركوتا ولوح بيده اعترافاً وتقديراً للتحية ، ثم ضم يديه لبعضهما ورفعهما ، ثم لوح بالمنديل وترقرقت قطرات الدمع في عينيه من شدة حماسه .

وتحرك الموكب نحو الميناء ، ووجدنا بمدخله رجالاً قدماء ، ووصل الحماس أشده عندما تقدم عقيد متقدم في العمر وقال : « كونوا رجالاً ، والوداع ولا تنسونا ، ولا تنسوا دائماً أن من مات في سبيل بلاده عاش أفضل حياة » وكان لهذه العبارات وقع وأي وقع .. بعضنا استقبلها بابتسامة تكبير وإعجـــاب وآخرون ذرفوا الدمع تجاوباً معها .

وبدأ رجال فرقتي وست فرق أخرى في اعتلاء بواخرهم . واجتمعنا نحن الضباط ، وتدريجياً وصل عددنا ٤٠٠ ضابط من مختلف الرتب والأعمار ، بعضنا ملازم تخرج حديثاً من أكاديميته العسكرية ، وبعضنا جنرال غزا الشيب رأسه وغطت النياشين صدره. وأعلن صوت فجأة أمر الانتباه وعزفت فرق الموسيقى النشيد الوطني،ورأينا صاحب الجلالة فيكتور عمانويل الثالث متقدما نحونا وخلفه مجموعة من الجنرالات . لقد جاء من رومـــا خصيصاً ليتمنى لنا رحلة سعيدة . وانتهى النشيد الوطني وسيطر السكون علينا وألقى جلالته الكلمة التالية :

« أيها الضباط ، إن الوقت وقت أفعال وليس وقت أقوال ، ولكني جئت لأبلغكم تحيات وتمنيات إيطاليا وتحياتي وتمنياتي .

اذهبوا تحفظكم السلامة ، لأن بلادكم كلها معكم في رحلة الحضارة التي أنتم مكلفون بها .

اكتبوا لعائلاتكم وبلغوهم أنه من الشرف أن يخاطر المرء بنفسه وحياته في سبيل اعلاء شأن علم وشرف بلاده » .

وسكت الملك قليلاً وترقرق الدمع في أعين العديد منا، لأن اللحظات كانت لحظات حاسمة أخاذة . وحاول جلالته أن يكتم عواطفه واستمر في خطبته :

« اننـــا أودعنا شرف علمنا أمانة لديكم ، فاذهبوا الى حيث النصر في انتظاركم » .

وهتفنا جميعـاً « تعيش إيطاليـا – يعيش الملك » وتكرر الهتاف مرات ومرات ، وعزفت فـرق الموسيقى النشيد الوطني وزاد التصفيق ، وانطبعت كلمات جلالة الملك في قلوبنا وكأنها كلمات كتاب مقدس .

وتحركت السفن تاركة ميناء نابولي ، وكانت الشمس مودعة في غروبها وراء جزيرة كابري ، والظلام مخيم في الأفق البعيد .. نحن الآن متجهون نحو طرابلس بسرعة ١٢ عقدة في الساعة .

الفصل الثاني

في خنادقنـــا

توجه بنا أسطولنا نحو طرابلس وغطى مسافة خمسة أميال من البحر ، ولما أصبحنا على مقربة من ساحل سيسيليا التقينا بقطعة بحرية عائدة من طرابلس ، أخبرتنا أننا سنكون بطرابلس في صباح اليوم التالي . وفعلاً وصلنا طرابلس يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٩١١ في الساعة الثامنة صباحاً . ورابطت السفن خـارج ميناء طرابلس ، لأنه صغير ولا يستطيع استقبالهـــا . ولم تعرف طرابلس في تاريخها ضخامة بهذا الشكل ، ولعل سكانها العرب مندهشون ويتساءلون فيما إذا كانت هذه السفن إيطالية فعلاً ، لأن الأتراك دأبوا على إفهامهم أن ايطاليا دولة صغيرة وضعيفة .

بدأنا إنزال معداتنا في الساعة العاشرة..وانغمر الميناء حركة ونشاطاً،وشقته الزوارق محملة بالأمتعة ، وانطلقت مجموعات من الجنود في زيها البني في شوارع طرابلس الضيقة . كانت الأوامر واضحة ودقيقة، وسار إنزال ٢٠ ألف جندي ومعداتهم ومؤنهم وبغالهم حسب الخطة وبكل نظـــام ، ولم يقدم شخص على خطوة ما إلا حسبما جاءت في الأوامر . كان كل ضابط يعرف مركز عمله على الشاطىء ، ولم يحدث أي ارتباك . وكان رجالنا في روح عالية ، وأمطرونا بالأسئلة عن العدو.. وفيما إذا كانت هناك فرصة قريبة للاشتراك في معارك معه.

وكلما مر زورق من الزوارق معبأ بالجنود بجانب إحدى السفن حياه البحارة وهتفوا لرجاله ، فامتلأ الجو مرحاً كبشرى سعيدة لنا جميعاً . وأتم المهندسون بناء منصات الإنزال ، وعمل الجنود والبحارة كل شيء في سبيل الاستعدادات القائمة من نقل وحمل في الزوارق وترتيب خروجها . وكانت فرق البيرزالييري أول الفرق التي نزلت إلى الميناء . أما الفرق التي نزلت فيما بعد ، فكانت مكلفة باحتلال المراكز التي أخلاها الأتراك. واستلمت فرقتي والفرقة الثانية والثانون من فرق المشاة الأوامر بالتقدم للخطوط الأمامية ، وتقدمنا نحو مراكزنا والتقينا بفرق البحارة العائدة من بو مليانه بعد أن دافعت عنه دفاعاً بطولياً لمدة سبعة أيام وسبع ليال . وتبادلنا معهم الهتافات « تعيش إيطاليا » ولوح لنا البحارة بقبعاتهم واشتبك الرجال من كلا السلاحين في عناق أخوي .

ووصلنا مراكزنا حوالي غروب الشمس ، ووجدنا بعض رجال البحرية لا زالوا هناك يعملون على إعداد بعض المدفعية . وهب رجالي كل إلى مكانه وبدأوا في تجريب أسلحتهم وبنادقهم وفي زيادة تحصيناتهم، ثم استقروا وبدأوا يحرسون انتظاراً لوقف القتال . وعلى بعد منا هناك كانت فرق أخرى تملأ الأكياس بالرمل وتعمل على قدم وساق في بناء قلاع بسيطة للدفاع . ولما جاء الغروب اختفى رجالها داخل خنادقهم ولم نر منهم شيئاً إلا أفواه بنادقهم ممدودة على حواشي الخنادق استعداداً لأي طارىء .

وخيم علينا الليل مظلماً بارداً ، وهيمن السكون ، ولم نر شيئاً إلا خيوط الضوء الكاشف الآتي من الأسطول . وسأل أحد الأطفال العرب الذين تبعونا لبيع التمر والخضروات فيما إذا كان الإيطاليون يصنعون ضوء القمر ! وهذا يذكرني بعربي آخر كان على الشاطىء اليوم ورأى أناقة بدل جنودنا وتساءل فيما إذا كان الإيطاليون أغنياء . وترجم لي أحد الهنود تساؤله : ان عقلية هذا

الشعب غريبة، انها عقلية بسيطة ولكنها عقلية شيطانية . وقد جئنا معنا لجيش الاحتلال بخمسين كلباً بوليسياً ، وهي كلاب فظة مطيعة وحارسة ممتازة ، وهي من فصيلة روسية دربت على البحث عن عدوها بعد اخفاء هذا العدو في شوال ، لأن المهربين يستعملون الشوالات لتهريب البضائع الممنوعة . وتلعب هــــذه الكلاب دور الشرطي في وقت السلم وتقدم مساعدة لا حدود لهـــا في زمن الحرب ، لأنهـا تبحث عن الجرحى وتحمـل المراسلات وتكتشف مخابىء الذخيرة والعتاد .

الفصل الثالث

التعميد بالنــــار

لقد تعمد رجالي بالنار يوم ١٤ اكتوبر سنة ١٩١١ على يد الهجوم التركي الآتي من منطقة أبو مليانه . ففي الساعة الثـالثة صباحاً سمعنا طلقة رصـاص واحدة تولول في هذا الظلام ، وبعد مرور دقيقة أو دقيقتين ولولت رصاصة أخرى ، وكان من الواضح جداً أن هاتين الرصاصتين ليستا اصليتين ، لأن أزيز رصاص بنادق الموزر التركية أزيز عال وعميق وبريق ضوئه يختلف عن البنادق الأخرى ، لأنه أحمر وبراق . وتقدم البحارة الذين لم يتم استبدالهم نحو بنادقهم الرشاشة ومدافعهم ، فاطلق الأتراك على خطوطنا النار بصفة جماعية . ويظهر انهم ركزوا على شجرة ضخمة كانت أمامنا ، لأننا رأينا رصاصهم ينهمر على جذعها. وكان خط هجوم الأتراك خطاً عريضاً قدرنا عـدد أفراده بحوالي ٥٠٠ رجل ، وكنا نعتقد أن هجوم الليـلة لا يختلف عن الهجومات التي رأيناها في الماضي .. ولكننا اكتشفنا أنه هجوم محكم ومخطط . وكان القمر على وشك الاختفاء ، ولم يبق من ضوئه إلا خيوط رفيعه بالـكاد استطعنا أن نتخيل شكل العدو بواسطتها . واعتمدنا في تهديفنا على التخمين والاستفادة من خيوط الضوء التي يشكلها رصاص العدو . وبدأنا في المعركة .. وجاءت مدفعية الأسطول لمساعدتنا ، وأصبح الموقف الآن « جهنماً » حقيقية ، وجرح حتى الآن اثنان من رجالي وتم تقديم الإسعافات لهما.. ولكنهما رفضا التوقف وأصرا على العودة الى ميدان المعركة . ومن الصعب جداً أن نقدر مدى فعالية رصاصنا ووقعه

على العدو الآن ، ولكن ما ان توقفت فرقتي عن إطلاق الرصاص حتى بدأت فرقة أخرى .. وهكذا الحال .

وبعد ساعة من القتال حاول الأتراك الاستيلاء على جناحنا الأيمن ، وتصدت لهم المدفعية ، ولكن اضطر رجال المدفعية فيما بعد إلى جر مدافعهم الى الأمكنة التي كانت بها حتى يستطيعوا تفادي ضيق الأمكنة . وأصبح ضربهم للعدو فعالاً فتراجع العدو إلى مكانه الأول .

وتوقف القتال مع بدء النهار ، إذ منعتنا طبيعة الأرض الصعبة من اتباع العدو ، وترك الأتراك أمام خنادقنا كمية من بنادق الهوتشكس مع كميات من الذخيرة ، ونحن الآن نستعملها في دفاعنا .

وقد وجدنا آثار العدو وهو يجر قتلاه ، وعثرنا على عشر جثث لم يسحبها العرب معهم — أحدهم قتل وهو يملأ بندقيته ، ووجدنا بمخلاة قتيل منهم لا شيء إلا قطعة من خبز يابس ورأس بصل . واكتشفنا أن هنـاك مناديل في أوعية مائهم ، ولعلهم يستغلونها في الاحتفاظ بالماء وامتصاصه . ويتضح لنا أن الهجوم كان مركزاً على آبار بو مليانه للاستيلاء على مصادر الماء . ان الآبار في افريقيا مهمة استراتيجياً ، ولكن ما على الأتراك إلا المجيء تحت علم الاستسلام وسنلبي طلباتهم مما يريدون .

لقد شعر رجالنا بالسعادة بعد الاشتراك في هـذا القتال ، وسخروا من الرصـاص الذي شق صفوفهم وسموه « باعوضا » وهم الآن في نشوة من لعبة الحرب الخطرة .

الفصل الرابع

انطباعاتي الاولى

لقد أعلن العرب انهم سيعترفون بسلطتنا عليهم متى عرفوا ان الإيطاليين أقوياء مثل الأتراك ، ولذلك لا بد من أن ننال صداقتهم عن طريق القهر فقط .

وقد أسند الجنرال كانيفا ـ قائد الحملة ضد طرابلس ـ منصب والي طرابلس بصفة مؤقتة إلى الادميرال بوريا ريتشي . واستقبل الجنرال ، حال نزولنا ، رؤساء البعثات القنصلية وحوالي مئة من الزعماء العرب الذين اتوا لإبداء اعترافهم بنا ، وأمر بالصاق تصريح له في كافة شوارع طرابلس . وقد كتب في هذا التصريح ــ من بين نقاط أخرى ــ اننا سنعطي «الاحترام لكل القوانين الدينية والمدنية ، وسنحترم الأشخاص والملكية وسنحترم النساء وحقوق كل المؤسسات الخيرية والدينية . اننا سنحكم حسب القرآن والقانون والسنة ، وسوف لن نفرض أي ضريبة جديدة لدفع أي شيء خارج القطر ، وسنلغي الضرائب المجحفة حسب متطلبات العدالة ، وسوف لن نفرض على أحد حمل السلاح ضد رغبته ، وسيكون كل شخص حراً في عبادته بمسجد داعياً بالخير للامة الايطالية ومليكها حفظه الله . ان ايطاليا تريد السلام والخير لهذه البلاد ، وتحت رعايتها ستبقى بلادكم بلاداً اسلامية ،وفي سماء بلادكم سترفرف رايتنا بالوانها البيضاء والخضراء الحمراء ، كرمز للولاء والمحبة والأمل » .

وقرأ العرب هذا التصريح وتقبلـــوه تقبلاً حسناً ، واصبحت طرابلس في خلال سويعات مدينة ايطالية وكأن القدر قد كتب لهـــا مقدماً هذا المصير . ها هي طرابلس قد انتقلت من سيطرة الى أخرى بكل عدم الاكتراث الاسلامي، وان سقوطها السريع يدل على ان سكانها لم يفعلوا شيئاً لرفـــع معنوية الاتراك الذين انسحبوا الى الدواخل . ان سكانها الآن مستمرون في حياتهم العادية ولا ترى عليهم الاسف او التألم، والشوارع والاسواق مملوءة بالحمير المحملة بالبضائع، ومن الشائع جداً أن يحس المرء تنفس جمل يئن تحت حمل ثقيل،إذ قد يمر التنفس ساخناً بجانب أذنه أو رقبته .

ولا شك أن تدفق الإيطاليين زاد حركة التجارة وأتى بأرباح للسكان .

واني مندهش جداً من غياب المرأة من الحياة العامة،إذ يخيل إلي أن طرابلس مملوءة بالرجال ، ويمكن تشبيهها بإحدى مقاطعات لندن حيث لا يرى المرء إلا الرجال مسرعين في طريقهم . وتبقى النساء ، خاصة الجميلات منهن ، في المنازل لأنهن يعتقدن أننا سنهينهن- لأن الرجال يشيعون بينهن ان الإيطاليين قد جاءوا لانتهاك الدين وحرمة النساء . ورغم الإعلانات التي أذعناها اننا نحترم المرأة ، لم تخرج إلى الشارع العجائز غير والقبيحات جداً لأنهن متأكدات ان الإعجاب بهن لا يعرف لهن طريقاً .

إن القصة التالية تثير الإعجاب حقاً . لقد اكتشفت بعد أن وصلنـــا إلى خنادقنا أن هناك بين رجالي رجلاً لم أره من قبل، وعرفت فيما بعد أنـــه أبن عضو في مجلس الأمة ، وهو بدرجة ملازم بنصف مرتب فقط . وتعود قصته الى أنه قد عمل كل ما يستطيع للالتحاق بالحملة ضد طرابلس ، ولكن محاولاته فشلت،فتقمص زي أومباشي ورمى نفسه بين الجنود وجاء معهم.وحين أعلمنا القيادة عن وجوده سمحت له بالبقاء حتى الاتصال بالرئاسة العامة وأخذ أوامر منها عن وضعه العسكري الآن .

أما قصة أخرى فتدهشني تماماً من تصرف العرب نحونا . لقد التقيت بعربي واتفقت معه على شراء حصان منه وأعطاني موعداً للالتقاء مرة أخرى، لكنه لم يوف بوعده . والتقيت به في اليوم التالي صدفة فبدأ يرتبك وكأنه كان عرضة للعقاب التركي ، وقال انه لم يستطع أن يحضر الحصان لأنه خاف أن يستولي عليه الأتراك . أما عربي آخر فقد أخبرني أن الأتراك قالوا للايطاليين عند ما رأوا الأسطول الإيطالي «ها هو هذا الأسطول البريطاني قد جاء لقهركم» ، ولم يقتنعوا أن إيطاليا لها أسطول قوي أيضاً إلا بعد بدء القصف، أما الآن فإنهم مقتنعون أن ايطاليا تمتلك جيشاً قوياً أيضاً .

وقد تطاول الأتراك قبل بدء الحرب في علاقاتهم مع الإيطاليين وفرضوا عليهم كل العقبات لا لسبب إلا لسبب واحد لم يبق سراً وهو « أنك ايطالي ». ففي المعاملات الجمركية مثلاً تفرض السلطات التركية رسوماً أعلى على بضائع تجارنا وتعرقل المسافرين الإيطاليين. بل حتى ان من ليس لهم سلطة اتبعوا نفس السياسة ، فملاك الزوارق كانوا يطالبون بأجرة قيمتها خمسة فرنكات عن كل إيطالي بينما لا يطالبون إلا بفرنكين فقط من المسافرين الآخرين الذين في طريقهم الى نفس الباخرة ، وإن حاول الإيطالي مناقشة الزيادة يرفضون نقله . أما الآن فقد اختفى الشعور المعادي لإيطاليا ، وأصبح شحاذ الشارع الذي كان معانداً بالأمس في منتهى الخضوع اليوم ، وأصبح من كان يكيل لنا الإهانات في الماضي يركض صباح كل يوم الآن لينال شرف مسح أحذيتنا . أما الطبقة السفلى من العرب التي لا شرف ولا شعور قومي لها فقد ساعدت على زيادة العداء ضد إيطاليا في الماضي ، وها هي اليوم صامتة تنتظر مـــا تأتي به الأيام . فماذا يتوقعون ؟ أن أغلبية أعضاء حزب الأتراك الشبان قد حوشت خارج طرابلس الآن ، ونضع تحت المراقبة كل من نشك في تصرفاته ، والجيش التركي النظامي بعيد ، ولنا هنا عشرون ألف جندي يحميهم الأسطول . ماذا إذاً ينتظر هؤلاء البشر ؟ مــاذا يتوقع هؤلاء الذين يحملقون كلما مروا بنا ويرموننا بنظرات الاشتباه بل بنظرات التحدي وكأنهم يقولون « سنلتقي مرة أخرى » ؟

الفصل الخامس

الجواسيس

لقد ركزت القوات الايطالية في خـط دفاعي يمتد من واحة قرجى بجانب البحر ماراً بآبار ابي مليانة وقلعة سيدي المصري ومرتفعات الهاني وينتهي بالبحر في شرق المدينة . وتشكل هذه التمركزات خاتماً دفاعياً متصلا يبلـــغ طوله حوالي سبعة أميال وتعلو البنادق الرشاشة كل المرتفعات الأرضية به . وتختلف سطحية الارض هنا من بقعة الى اخرى وتعطي لنا مركزاً للحراسة والمراقبـة . اننا نستفيد ايضاً من اشجار النخيل في الاستطلاع على مناطق تمتـــد لعدة اميال . وامامنا الآن السكان العرب الذين يسكنون هـذه الواحات ويعملون في حقولهم ، ويمرون ذهاباً وإياباً بين خنادقنا بكل حرية . ولم نشك ابداً في صحة خضوعهم لنا ، بل لم نشك قط في الباعة الذين يزوروننا يومياً ويتعاملون مـــع جنودنا، ويخبروننا ان الحاجة تدعو السكان الى العودة الى طرابلس من الريف . وقد عاد احد الضباط الأتراك الذي لم يحصل على الطعام بالدواخل الى طرابلس البارحة وتركناه ورجاله يدخلون المدينة واعطيناهم حرية التجول فيهـــا لاننا لا نريد ان نصنع منهم ابطالاً بطريق بخس .. لدينا الآن مـا يكفينا من اعمال لتصفية مشاكل عشرين الف مواطن فقير سبق لهـــم المجيء من الجنوب ورماهم الأتراك في ضاحية المدينة ليعيشوا حياة الشر والكوليرا.

ولا زالت سفننـــا تصل يومياً من إيطاليـــا محملة بالملابس والارز والشعير لإطعام هؤلاء المساكين ، أما اطباء الجيش فهم منغمسون في مكافحة الأمراض

والكوليرا وفي تحصين السكان ضدها،والمهندسون يبنون المستشفيات ووحدات السكن، ولقد اضيئت شوارع طرابلس ونظفت لاول مرة في حياتها مثل دول اوربا ، أما ميناءها فالعمل جار فيه ليل نهار لتوسيعه وزيادة قدرة استيعابه ، كما بدأ البريد في العمل .

وقد تم تكوين قوة الجندرمة من العرب والايطاليين بنسبة متساوية ، وأنشأنا محكمة عسكرية برئاسة عقيد .

وقد جاء الى منطقة الدفاع التي كنت بهـــا ضابط تركي ومعه ثمانية جنود رافعين علماً ابيض ، وطالب بمقابلة الجنرال كانيقـا . فقمنا بربط مناديل على عيونهم ، ورافقت بنفسي الضابط الذي ادعى انه طبيب الى القيادة العامة. وقد ذكر ان قيادته ارسلته الينا ليطلب المساعدة بإعطائه بعض الأدوية حتى يداوي بها الاتراك الجرحى والمرضى. ورد عليه الجنرال كانيقا انه مستعد تماماً لان يتولى علاج المرضى الاتراك ، لأن المسافة التي تفصلنا عن بعضنا مسافة بعيدة جداً وان يكفل حرية الرجـال الذين ياتون بالمرضى ، ولكن لا يستطيع ان يقدم اي ادوية او معدات . وعدت بالضابط وتركناه بعد ذلـــك يعود الى مقره . ولكنه جاءنا عربي واخبرنا انه قد عرف الضابط وان هذا التركي ليس دكتوراً كما ادعى وانما هو ضابط معروف ومهمته في الخطوط الامامية ، وكان مشهوراً بلحيته الحمراء . واسرع هذا العربي في نقل اقواله الى الجنرال كانيفا مقسماً بالله ان التركي الذي ادعى انه طبيب ما هو الا جاسوس جـــاء لكي يرى بنفسه التخطيطات الايطالية . وفي الحـال امتطى عشرة من رجـــال الكرابيبرى خيولهم واسرعوا وراء هذا الجاسوس بعد ان طلبنا من كل المراكز ان تحاول مراقبته ، واخيراً اعيد هذا الجاسوس ورجـــاله الى الجنرال . ولم تمض ساعتان من الزمن حتى كان ورجاله على ظهر باخرة متجهة نحو نابلي . لقد انتهك هذا الرجـل حرمة القانون التي تعطى للأطباء وعربات الاسعاف والصليب الأحمر اثناء الحرب ، وآن لنا ان نعرف ان الاتراك قد وضعوا شبكة

جاسوسية محكمة ضدنا . ولقد استطاعوا في السابق ان يزرعوا رجـــالهم في طرابلس ويحصلوا على ما يريدون من معلومات عن دفاعنا وخطوطنا. وكان من بين عملائهم ضابط الماني سابق اسمه فون لوكو ، وهو صديق للاتراك ولـه عدة ممتلكات بطرابلس .

وقد القينا القبض ليلة البارحة على احد الاتراك لاننا وجدناه مجتمعاً بالعرب بطريقة مشتبه فيها، فادعى انه كان تابعاً لاحدى الوحدات الطبية ، ويظهر ان الجيش العثماني كله مكون من الاطباء فقط ! لقد وجدت السلطات الايطالية بمستشفى طرابلس عندمـا احتلت المدينة ٢٢ جندياً تركياً مريضاً بدون عناية ولكنهـــا وجدت بالمستشفى العسكري ١٦٠ دكتوراً ومساعداً يشرفون على عشرين مريضاً منهم ستة في حالة نقاهة !

واكتشفنا قوة الاسطول التركي كلها التي كانت مختفية منذ يوم٥ أكتوبر . انها مكونة من فرق بحارة عظيمة ! انها مكونة من تسعة أشخاص قائدهم احمد ابن اسماعيل وضابط وسبعة بحارة يكونون طاقم وبحارة سفينة تعرفها طرابلس وتسميها « القهوة » وقد عرفت السلطات الإيطالية مخبأ هذه القوة وطوقتهـا واستسلمت وأعددناها للسفر. وفسر لنا « القائد » سبب وجوده في المدينة فقال انه لم يستطع الابحار لأنه كان يفتقر إلى المعدات ، ولم يلتحق بالقوات التي انسحبت نحو الدواخل لأنه تابع للاسطول ، ولم يستطع أن يقاوم لأن بندقيته كانت غير صالحة ،ولم يرغب بالطبع أن يقع أسيراً ففضل أن يجمع رجاله. وجمعوا شحنة من التبغ وكمية من « ذخيرة الفحم » ودسوا أنفسهم في مسكن صديق حيث بقوا ينتظرون السفر متى جاءت إرادة الله لتسهيل ذلك. وها هي الإرادة قد جاءت على يد ضابط الجندرمة الإيطالية الذي أخذه حيث تم نقله فيما بعد إلى سفينة لتنقله إلى نابولي كسجين حرب .

ومن يستطيع رغم كل عمليات القاء القبض التي قمنا بها أن يتكهن عن عدد العرب المسلمين الذين لا زالوا بعيدين عن أنظارنا ؟ ان هذا لا زال سراً !

الفصل السادس

الخيانة العظمى

لقد استلمت فرقتي الأوامر بالتحرك لمسافة ميلين نحو الشرق حتى تصبح بين منطقة المصري ومسجد الهاني بعد أن تعمدت بنيران ليلة ١٤ اكتوبر سنة ١٩١١ في معركة أبو مليانة .

ولم نر في ليلة ٢٣ أكتوبر أي علامة تدل على أن هناك في الأفق معركة قادمة في تلك الليلة ، خاصة وان الهدوء قد سيطر منذ معارك أبو مليانة . وكدنا ننسى أننا في حرب . ولكن الرصاص اندلع في الساعة السابعة واعتقدنا أنه لا يزيد عن احدى التحرشات العادية التي تعودنا عليها . كانت مراكزنا مفصولة عن مراكز الأتراك بمجموعات من أشجار النخيل الكثيفة والرمال ، وكان الأتراك متحصنين وراء بعض الحيطان ومن الصعب رؤيتهم . وفجأة علت صيحات الحرب واندفع نحونا العرب ! انهم هم عرب الواحة الذين غمرناهم بعطفنا ومساعدتنا ، وها هم الآن يلحفون في القتال ضدنا ويهاجموننا من الخلف بدون أي إشارة إنذار ! انهم هم نفس السكان الذين أعطيناهم حرية التنقل من خنادقنا وتسولوا السجاير من جنودنا واقتسموا معهم وجباتهم .

لقد كانت الواحة نهار اليوم مملوءة بالعرب كالعادة ، وكان تصرفهم تجاه جنودنا عادياً ،إذ حيوهم كلما التقوا بهم ،ولم نلاحظ أي شيء غير طبيعي. ولكنهم اختفوا فجأة ، ولما بدأ الأتراك يطلقون النار علينا من الامام هجموا علينا هم

من خلف ظهورنا وأمطرونا برصاصهم من وراء حيطان منازلهم ومن أعالي أشجار النخيل ومن كل مكان . وكانت كل رصاصة من رصاصاتهم رصاصة قاتلة ، وسقط بجانبي ضابطان كانا يدافعان ضد الأتراك ، ويسلط العرب نيرانهم على الضباط لأنهم يميزونهم بمناديلهم الزرقاء . وأرسل قائدنا عدة مراسلين إلى القيادة العامة لإعلامها بالخطر الذي نحن فيه ، لأنه خشي أن نقع ضحية جبهة مزدوجة الهجوم . ولم يصل من المراسلين إلا شخص واحد فقط أما الآخرون فقد قتلهم العرب .

وقد قاتل رجالي قتالاً مستميتاً بينما كنا ننتظر وصول الإمدادات الينـا ، وقمت بتقسيم فرقتي إلى جزءين لكي نواجه الأتراك والعرب بآن واحد . وغطى الأتراك بهجومهم كل جبهتنا من آبار بو مليانه إلى شارع الشط ، لأن العرب الذين وراء خطوطنـا تعاونوا معهم . وأرسلت لنـا القيادة فرقة من الفيلق الثـاني والثمانين من المشاة منذ الصباح، لكنها لم تصلنا إلا بعد ست ساعات، لأن سكان فشلوم ثاروا ضدها واشتبكوا معها في قتال عنيف تحت قيادة الضباط الأتراك. ولما استطاعت قواتنا اختراق فشلوم والوصول إلينا وجدت أن الأتراك قد غزوا بعض مراكزنا. وبدأ بيننا وبينهم قتال عنيف بالسلاح الأبيض دام لساعة كاملة لا توقف فيها . ورأيت في أثناء هذا القتال مجموعة من رجالنـا معزولة عنا بدون قيادة ، لأن ضباطها قد وقعوا جميعاً قتلى .. ولكنها تقاتل ببسالة . ولم يتوقف قائد قواتنا عن التجول بين كل الفرق المحاربة . وانتشرت الجثث وراء كل شجرة ومرتفع ، وتكوم الموتى والجرحى من إيطاليين وعرب في كل مكان، فما أن يرتد عدونا من غارة من غاراته حتى يعيد الكرة علينا مرة أخرى بقوة أشد من الاولى . ان العرب يتمتعون بقدرة السرعة في الحركة ، فما ان ترى الواحد منهم هنا حتى يختفي عنك ليظهر في مكان آخر .

ولكن كثيراً من هؤلاء العرب وقع قتيلاً في مكانه برصاص البيرزاليير ي. لقد قتلنا عشرة من العرب مقابل كل قتيل منا ، لكن العرب يجمعون قتلاهم عندما

ينسحبون . وقد رأيت بعض العرب يسحبون رفاقهم من أقدامهم ويتركون وراءهم طريقاً دامية .

واشتدت ظروفنـا في المساء ، واكتشفت أن العرب والاتراك يهـاجمون مستشفانا حيث هناك ما يزيد عن مئة جريح كنا نعتبر أنهم في أمن وسلام، لأن علم الصليب الأحمر كان مرفوعاً . وتوجهت وبعض رجالي إلى ذلك المستشفى .. ولكننا جئنـا في وقت متأخر ، لأن العرب دخلوا المستشفى وذبحوا الجرحى ومثلوا بجثثهم بطريقة لا يمكن وصفها. أما في الأماكن الاخرى من المعركة فاننا نعثر على جثث الإيطاليين القتلى عارية ممزقة بالخناجر ومقطعة بشكل مرعب أو مفقودة العيون ، ممزقة البطون . وقد كان الاومباشي جورو رفائيلي من الفرقة الحادية عشرة مشتركاً في المعركة ووقع جريحاً، فحولناه إلى المستشفى بسيارة إسعاف ، ولكن العرب هاجموا السيارة وقتلوا سائق السيارة ورفائيلي ، ثم فصلوا رأس رفائيلي عن جسمه وقطعوا بلعوم رفيقه. ومن يرى ما يحدث لجثث القتلى يعرف الخطر الذي تعيش فيه القوات الإيطالية الآن بعد أن أرسل بعضها إلى الخمس وبنغازي ودرنة وطبرق ، وقـد اعتقدنا أن العرب استسلموا لنـا وتركنا عشرة آلاف جندي إيطالي فقط بطرابلس .

صادفنا الحظ ووصلت أخيراً القوات التي أرسلت لنجدتنا ، واستطعنا بما قدمته لنا هذه القوات من مساعـدة واشتراك في المعركة أن نرد هجوم الاتراك مع غـروب الشمس وأجبرناهم على الانسحاب .

واستطعنا أيضاً قبل غروب الشمس أن نصفي ثورة عرب الواحات حتى رمى سكانها سلاحهم وبدأوا في الفرار . وقد وقعت في طرابلس نفسها محاولة للثورة لأن اليوم يوم سوق، وجاء العرب إلى ذلك السوق من كل مكان مسلحين سرياً ، يرتدون « الجرد » الذي يخفي مـا معهم . وقـد انتشر العصيان بينهم ونحن منهمكون في المعركة ضد الاتراك. وكان السبب في ذلك عائداً الى تجمهر العرب حول إحدى عربات الإسعاف التي شقت السوق بأحد الجرحى ، وأمر الضابط

الجنود برد هؤلاء العرب .. وبـدأ الجنود في تنفيـذ الاوامر ، فانفجر الحشد وأقفلت المحلات أبوابها وأطلق العرب رصاصهم من كل منزل ونافذة على ضباطنا الذين كانوا يتجولون ومعظمهم بدون سلاح. وحاول شاب عربي أن يقتل ضابطاً من ضباط البيرزاليري ، أما مترجم القنصلية الالمانيـة ، وعمره ١٨ سنة ، فقد قتل أحد ضباط المدفعية الجرحى. وأرسلنا سيارات الحراسة لتجوب الشوارع حتى تهدأ الثورة .. ولكنها هي نفسهـا وقعت عرضة لإطلاق النار . واخيراً سيطرنا على الموقف مع غروب الشمس . ولما خيم الظلام أرسلنـا أو بالأحرى بدأنا في إذاعة البيان التالي بين السكان : « كل من لم يرم سلاحه وذخيرته حالاً ويسلمه إلى السلطات سنطلق عليه الرصاص » ، وفرضنا منع التجول من الساعة التاسعة مساء .

لقد كانت خسائر العدو في هذه المعركة خسائر فادحة جداً ، لأننا وجدنا ٣٢٠ جثة عربي وجثث ١١٦ تركي أمام خنادقنا فقط ، ولا نشك قطعاً ان ما لا يقل عن ألف قتيل آخر قد وقع . أمـا نحن فقـد خسرنا ١٥٠ قتيلاً و ٤٠٠ جريح و ٥٠ مفقوداً . وتكشف لنا نسبة القتلى إلى الجرحى العـالية ، الطريقة المشينة التي يتبعها العرب في قتل الجرحى الذين يجدونهم في الميدان .

الفصل السابع

حوادث تستحق الذكر

إن قصة يوم ٢٣ اكتوبر المخيفه قد كتب عنها جنودنا وضباطنا، وها نحن نقدم مقتطفات من رسائلهم وملاحظاتهم كما كتبوها بكل صراحة دون أي تغيير .

لقد كان الملازم روبيرتو سالسامو من الفرقة الثانية والثمانين من بين المجروحين وذهبت لزيارته في المستشفى وفيما يلي وصفه لما حدث :

لقد كنت في فرقة الاحتياط المعسكرة بطرابلس عندما هجم الاتراك على جبهتنا ؛ فانتشرت فرقتي في المدينة لكي تلقي القبض على الذين يلقون النار من منازلهم . ووصلتنا الأوامر بالتحرك للمساعدة في الساعة الثانية ، فتقدمت ورجالي الخمسون إلى الهدف المعين لنا لمطاردة عرب الواحة الثائرين. واشتبكنا مع بعض المهاجمين حتى الساعة الرابعة مساء عندما وصلنا مراسل ابلغنا لكي نسرع إلى نجدة الفرقة الحادية عشرة التي كانت محاصرة. فتوجهنا نحوها، وهاجمنا في طريق تقدمنا حوالي مئة عربي من كل جهة ، وكنا لم نرهم بسبب عدم استواء الأرض التي كنا بها . وبدأ رجالي يتساقطون قتلى فلم يكن امامنا خيار الا التقدم أو الاستسلام. وتقدمنا واصابتني رصاصتان .

وبعد اصابتي تولى جاويش قيادة رجالي واخذت انا الى المستشفى ، وجرح أحد الجنود الذين كانوا يحاولون نقلي .

اما أحد رجال الفرقة الحادية عشرة فيصف ثورة العرب كما يأتي :

لقد استلمنا الاوامر بالتحرك لمساعدة الفرقة التي كانت ملتحمة في المعارك . وبدأ رجالي البيزاليري يتساقطون كما يتساقط الذباب لان الأتراك يرمونهم بالرصاص من الأمام والعرب من الوراء ومن كل مكان، فلم نستطع او بالاحرى لم نعرف إلى أين نصوب بنادقنا لأن الرصاص ينهمر علينا من كل بقعة. وقُضي على جل الرتب بيننا، لكننا زحفنا حتى وصلنا الخنادق. ولم يتوقف الثوار عن اطلاق النار حتى الليـل . وانشغلت فرق منا في تفتيش المنازل وقتل كل عربي وجدنا معه سلاحاً . ان الاحوال الآن هادئة ولكننا لا نعرف النوم أو الراحة .. يكفي ان اقول لك انني لم ابدل مـلابسي منذ شهر ولم أغتسل منذ اسبوع ، وان اراد الواحد منا ان يجلس فلا شيء تحته الا الرمال الملتهبة نهاراً والباردة ليلاً ولا شيء في يده الا بندقية مملوءة باستمرار وكومة من الذخيرة لجانبي .

ويغير العرب علينا في فرق مكونة من عشرة الى خمسة عشر رجـلاً تحت قيادة ثلاثة أو اربعة من الجنود الاتراك ، ويتقدمون نحـونا زاحفين ويطلقون النار ويختفون، وان اردت ان تصيب احدهم فلا بد وان تكون سريعاً، ونحن ننتظر دائماً خروجهم من مخابئهم قبل ان نطلق عليهم النار .

وقد كتب الاونباشي كوردوني – وهو من ميلانو ما يلي :

« كلفت وعشرين من رفاقي في يوم ٢٣ اكتوبر بحراسة الركـن الايمن من معسكرنا . ودخلنا عشاً من اشجار النخيل ، وكانت بنادقنا معبأة استعداداً لاي طارىء ، ولكننا وجدنا فجأة ان العرب قد عزلونـا عن مواقعنـا . وسقط بعض منا قتلى وجرحى وأُخذ الاحياء اسرى . وجمعنا العرب لتفتيشنا ، ولكن جاءت فرقة ايطالية في ذلك الاوان وخلصتنا مما كنا فيه ، وفر العرب واستعدنا نحن حريتنا . لقد استلمت رسالتك يوم ٢٤ بينما كنت منهمكاً في اطلاق النار على اثنين من العرب الذين القينا عليهم القبض وهم يمثلون برأس احد رجالنا . وقتلنا الرجلين الاثنين في نفس البقعة والمكان » .

الجندي المجروح والملك: لقد جرح الأونباشي لو تشيانز آرائي، لأن رصاصة دم دم أصابت ركبته واضطر الأطباء لبتر ساقه كلها، وبقي للعلاج في مستشفى باليرمو. وزاره الملك والملكة هناك يوم ٢٣ اكتوبر ووصف حالته كما يلي:

« ان الالم يخف تدريجياً في ساقي المبتورة، وجاء الملك والملكة في زيارة إلى المستشفى وكان لهذه الزيارة وقع عظيم في نفوسنا جميعاً. وقد وقف من يستطيع في حالة انتباه أما أنا فلم أقدر على ذلك طبياً. وقد وقف الملك بجانب كل رجل منا وتحدث معه وسلم عليه، ثم وصلني ولاحظ لحيتي فسألني ان كنت في فرق الاحتياط، فقلت له: انني كنت مع فرق المتطوعين، فرد علي: « برافو، برافو، كن هكذا دائماً ». ثم سألني كيف جرحت؟ فأجبته: انني جرحت بينما كنت أنقل الأوامر من رئيسي إلى رئاسة الأركان العامة بطرابلس وأطلق علي العرب النار فوقعت. ولما ترك العرب المنطقة بدأت أحاول السير حتى وصلت طرابلس بعد ساعتين من الزمن لكي أسلم الأوامر التي معي، لأن الجبهة كانت في حاجة إلى المساعدة. وهنا سلم علي الملك سلاماً حاراً وقال: « حسن ما فعلت، انك رجل شجاع » ثم أمر أحد أتباعه بأن يأخذ اسمي واسم فرقتي العسكرية. أما الملكة فقد كانت تستمع باهتمام لقصتي، ولما انتهيت منها سلمت لي الأزهار التي كانت بملابسها ».

وقد روى لي الملازم نابوليتانو من الفرقة الحادية عشرة الحكاية التالية: لقد أخذ هذا الملازم فتى عربياً عمره ١٦ سنة في خدمته، وعـــامله بكل لطف واحترام. ولمـــا اندلعت ثورة الواحة اشترك هذا الملازم في الحرب.. ولكن رجاله قالوا له « لا تأمن هذا العربي » وبالفعل وقع ما في الحسبان، إذ استولى هذا العربي على بندقية وصوبها نحو سيده الذي كان يقظاً وسريعاً واستطاع أن يطلق عليه النار من مسدسه ويرديه قتيلاً في نفس اللحظة التي كان فيها أبو وأم وأخو هذا الفتى يشتركون في المعارك ضدنا.

ووقعت قصة أخرى مع الأتراك لأن ضابطاً من ضباطهم وصـــل على ظهر جواد رافعاً علماً أبيض وطالب بمقابلة في القيادة العامة . وكان هذا الضابط يتكلم الفرنسية بلسان فصيح، وربطنا على عينيه منديلاً وقدناه إلى الجنرال فارا حيث تمت المقابلة وأخرج هذا الضابط التركي وثيقة تقول: « هذه هي وثائقي التي تعرف بي : انني مكلف من رئاسة الأركان التركية بمطالبتهم بالاستسلام الفوري في كل الأماكن التي جرت بها المعارك في يوم ٢٣ اكتوبر » . إن هذا الضابط من فرق الفرسان كما يدعي ولكنه لا يملك من الفروسية شيئاً إلا زيه العسكري ، لأنه ضعيف وأصفر . ولما اتهمناه بأنه جاء للتجسس على المواقع الإيطالية اهتز صوته ورد قائلاً « ان رئيس الأركان أرسلني . ان رئيسي هو الذي كلفني » وقد كان الجنرال كانيفا يغلي من جراء الهجومات التي وقعت علينا فرد عليه « قل لرئيسك اننا وجدنا أنفسنا نتعامل مع سفلة وليس مع جنود . أما المواقع التى تريدونها فتعالوا واستولوا عليها. انك محظوظ جداً، لإني لم أصدر الامر باطلاق النار عليك كجاسوس . إذهب » . وترك التركي بين ضحك الحاضرين !

الفصل الثامن

معركة المصري

لقد بدأنا نتوقع حدوث معركة كبرى منذ أن تجرأ العرب على مطالبتنا بالاستسلام. ومن المعلومات التي جاء لنا بها جواسيسنا من رجال القبائل علمنا عن وجود تجمعات كبيرة خاصة على مركزنا الدفاعي الأوسط ، وبدأنا في اتخاذ كل الاحتياطات. فأرسلنا فرقتين لتعزيز خط دفاعنا الواقع شرقي الواحة بالإضافة إلى بعض فرق المدفعية ، وغرسنا البنادق الرشاشة في الأماكن المرتفعة . وأصدرت القيادة الأمر لسفينتين لكي تقف احداهما شرقي المدينة والأخرى في مياهها الغربية حتى تحرسا جناحي خطوطنا .

وكانت ليلة ٢٥ اكتوبر ليلة هادئة مظلمة ، ولكن دقات الطبول ارتفعت فيها وزاد أزيزها منذرة ببدء معركة وأي معركة . لقد كانت الدنيا ظلاماً وبالكاد يرى المرء أي شيء واقع على بعد ٢٥ ياردة . ووقف حراسنا ينصتون ولا يرون ، وكان جنودنا نائمين في خنادقهم . واستطاع العدو ان يزحف خلسة كالقط تحت جناح الظلام ، حتى أصبح على بعد بضع مئات الأمتار منا . انه عدو يعرف الارض والمنطقة شبراً شبراً ، خاصة وانه تحرش بنا مع حلول الليل وجعلنا نطلق النار وعرف مراكزنا . وبقي رجال العدو مختفين في أماكنهم بدون تحرك. . انتظروا بزوغ الفجر ،وهو الوقت الذي يفضل فيه الأتراك والعرب الهجوم ، لأن الحرس يكونون في هذا الوقت يقاتلون النعاس بعد أن أرهقهم

السهر . وفجأة مزق السكون الرصاص في الساعة الخامسة بالضبط .. أمطرنا العدو برصاصه وسلط على مركزنا الدفاعي الاوسط كل قوته. ولكنه شغل بنفس الوقت مواقعنا الاخرى، ولم يكن الهجوم هجوم تظاهر فقط . لقد كان الهجوم مركزاً على الهاني حيث أنا وحيث هناك المعسكر الخاص بالخيالة .

وقد بدأ اطلاق النار بعد صدور إشارة معينة ، ثم زادت حدته تدريجيا . وتطايرت الرمال بعد أن اصطدمت بهـا قنابل مدفعية الهاني فارتفعت في الجو وغبرت المنطقة كلها. وجاوبت مدفعية الهاني مدفعية الأتراك،ثم تدخلت مدفعية الأسطول . أما طرابلس نفسها فلا حركة فيها ، شوارعها خالية خاوية وهي ميتة تماماً .. لكن منطقة السوق والمناطق التي التحقت بهـــا يوم ٢٣ اكتوبر عادت إلى المسرح من جديد إذ لا زال بها ثوار يختفون . وهناك قرية عربيـــة صغيرة بعدها عني نصف ميل فقط بدأت في إطلاق الرصاص أيضـاً ، فكلفني الجنرال فارا أن أذهب برجـالي إليها لإسكاتها . واستوليت على القرية وألقيت القبض على سكانها جميعاً بعد أن خسرت بعضاً من رجالي. و كلفت خمسين جندياً بسوق السكان إلى طرابلس ثم أشعلت بها النار واكتشفت انها عبارة عن مخزن بارود .. لأن الانفجارات بدأت مع اشتعال النار فيها .

وبعد أن أخذ رجالي سكان هذه القرية إلى طرابلس عادوا إلينا ولكنهم اشتبكوا مع الأتراك في الهاني .

إن الهاني عبارة عن جبيل عار من التغطية يرتفع حوالي ١٨٠ قدماً،تحيط به واحة من جميع الجهات وكأنه صخرة بارزة في البحر تضم المياه جوانبها . وحين يقف المرء على قمتها يرى مياه البحر الأبيض المتوسط شمالاً والصحراء في الجهات الأخرى، ويرى أيضاً غابة كثيفة مياه أشجار النخيل تمتد شرقاً وغرباً. وهناك على قمة هذا المرتفع فيلّة القائمقام التركي تحيط بها القرية والمسجد . وقد اتخذت السلطات الايطالية من هذه الفيلا مركز قيادة وغرست حولها البنادق الرشاشة والمدفعية ، ووضعت وراء الجبيل محطة للخيول ومستشفى ومركزاً للصليب

الأحمر لأنها اعتقدت أن هذه البقعة بقعة آمنة . ولكن شيئاً غريباً وقع لرجالنا الذين في هذا المكان الآمن لأن رصاصة أتت من مكان ما وقتلت حصاناً. وهرع الرجال لفك العربة من ذلك الحصان . ثم وصلت رصاصتان أخريان وجرحتا رجلين ، واستمر الرصاص ولم يعرف أحد من أين كان آتياً . ثم جرح رجلان من رجال الصليب الأحمر ، ومع هذا لم يعرف الرجال مصدر هذا الرصاص ، ووقعوا في حيرة حتى صرخ أحد رجالي قائلا : « الرصاص يأتي من تلك البقعة » وأشار إلى كوخ عربي . واتجه نحو ذلك الكوخ يحمل مسدسه الذي قدمته له إحدى سيدات نابولي عندما كان قادماً إلى طرابلس . واشتبك في معركة مع ثلاثة من العرب كانوا مختبئين في ذلك الكوخ وقتل أحدهم ولكن الآخرين رمياه ورأيناه يقع ، وجاء لنجدته رجالنا وتسلق أحد رجال البيرزالييري الحائط على ظهر أحد زملائه ورأى العربيين يركزان بندقيتهما نحو باب الكوخ ، فملأ بندقيته وأطلق طلقتين حالاً وقتلهما ، ووجدنا معهما كميات من ذخيرة الموزر .

ان المعركة كلها تدور حول الهاني ، وخطوطنا تكوّن شبه مربع حول الجبيل ، والعرب يحاولون الإحاطة بها وعددهم يصل حوالي ثلاثة آلاف رجل لا تفصلنا عنهم إلا مسافة ٣٠٠ ياردة . انهم يهجمون ويرتدّون ويكررون الهجوم من جديد وهكذا ، ويركزون في كل مرة من هجوماتهم على المناطق التي يعتقدون انها ضعيفة في خطوطنا ، وما أن نصدهم حتى يعودوا بقوة أشد مرة ثانية . وكانت بنادقنا الرشاشة المغروسة من الهاني حتى شارع الشط تزرع رصاصها على المنطقة وتنشر الموت فيها .. لكن العدو لم يتوقف قط ، فركزت مدفعيتنا على كل شيء واقف من حيطان وغيرها حتى تسويه بالأرض. وتطايرت الجثث في السماء ، لكن نار العرب لم تتوقف . وتبعثرت جثث العرب في المنطقة بعضها مرتد بدلة تركية تحت « جرده » .

كان الجنرال كارا في قيادته بالفيلا في الهاني يصدر الأوامر ويبعث بالمراسلين إلى خطوطنا . فوصلوها والغبار يغطيهم لكنهم يحيون بعضهم وكأنهم في مقهى .

وحين يصل المراسلون نتبادل عبارة « تشاو تشاو » ونتبادل آخر الأخبار ونتحدث عن الرفـــاق الجرحى والأموات ثم نسلم على بعضنا ونقول « الوداع ونتمنى لك حظاً سعيداً » ويسرع كل منا إلى واجبه . ولكن الرصاص يتساقط بعض الأحيان من النوافذ ويحول المكان إلى جحيم فعلي ، ونرى بعض الأحيان عربياً يتسلق نخلة وكأنه نمر لكي يصل مركزاً أفضل لتسليط ناره علينا. ويتصيده رجالي حالما يرونه ،وأصابت رصاصة قبعة أحد هؤلاء الرجال ورمتها على الأرض واختطفها هو .ووجد ان الاصابة قد فصلت نقوش اسمه النحاسية ولكنه لبسها وبدأ يطلق النار من جديد ، فسألته « كيف شعرت ؟ » ورد علي : « لم يحدث أي شيء ! لقد مر برأسي تيار هوائي فقط ! » . أما بيترو آري ، أحد الشباب السردينيين فقد أصيب في رقبته ،وأسعفناه وضمدنا له جرحه بمنديله وطلبت منه أن يذهب إلى المستشفى .. ولكنه رفض وفضل البقاء في ميدان القتال فأصيب مرة أخرى ومات .

وفي الساعة التاسعة تقريباً خف الهجوم علينا وبدأ العدو يناوش في أمكنة متفرقة بدل تعميم المعركة كما كان قبل الآن . ثم ركز على مركز خطوطنـــا الواقعة بين سيدي المصري وبو مليانة وبدأت مدفعية الأسطول في التدخل هناك. وزاد العرب هجماتهم ورأينا فرسانهم يندفعون نحونا ، ثم يرتدّون وهم ساحبون من وقع بينهم قتيلاً ليعودوا كارّين من جديد . أما مشاتهم فقد رمت كل ثقلها على جبهة سيدي المصري مختفية بين الرمال واستطاعت أن تزحف حتى أصبحت على بعد مئة ياردة من خنادق الفرقة الرابعة والثمانين. وعندئذ هبوا معاً ولم تستطع تلك الفرقة مقاومتهم. وانكسر خط دفاعها ودخلها مئتا عربي واندلع قتـــال بالسلاح الأبيض ، وزاد العرب صراخهم الحربي وتغلغلوا حتى مدرسة الخيـــالة وتوزعوا في الجبهة وطعنوا بعض الخطوط من الخلف . وتقدمت رجال الفرقة الرابعة والثمانين مع فرق من الخيالة والرماة العرب وسقط الضابط فاتيني قتيلاً ثم لحق به بيليني .

وفي أثناء هذا القتال وصلتنا فرقتان من فرق الاحتياط من طرابلس ، قاتلت احداهما معنا لمدة نصف ساعة فاستطعنا أن نرد العرب ونسترد المواقع التي استولوا عليها، بل واستطاع رجال المجموعة الرابعة من الفرقة الرابعة والثمانين أن يستولوا على علم العرب ، فعاود العرب الهجوم وهم يتلون القرآن .

لقد التجأ حوالي مئة رجل عربي الى منـــازل الواحة وقاوموا ولا زالوا يقاومون مقاومة فعالة، وتقدم نحوهم ستة من الإيطاليين وصعدوا أحد الحيطان وأفلتوا النار على من كان منهم في فناء .. ولكننا قررنا حرق المنازل ، فجمعنا سعف النخيل اليابس وأطلقنا فيه اللهيب . فاضطر العرب للخروج من مخابئهم عندما وقعوا تحت ضغط الدخان وقتلناهم واحداً بعد الآخر .

وأرسلت لنا القيادة قطعة مدفعية جديدة نزلت لتوها من إيطاليـــا لكي نبقيها بين بومليانة ومدرسة الخيالة حتى نعزز بهـا المراكز الضعيفة في خطوط دفاعنا .. وها هي تطلق نيرانها على العدو المتقهقر . وقد بدأ الأتراك في زيادة سرعة انسحابهم لأن جناحنا الأيمن بدأ في الانضمام عليهم . واصحب الانسحاب عاماً في الساعة العاشرة إلا أن الأتراك قد تركوا وراءهم بعض المراكز لإطلاق النار ، ونحن نراهم متجهين نحو الصحراء في مجموعات كبيرة . أما الأرض التي أمام خنادقنا فمغطاة بالجثث ، وقد وجدنا بين هذه الجثث جثتي رجلين ماتا وهما على وشك غزو مواقعنا .

ان القتال الآن قد توقف من الناحية الاستراتيجية هنـــا إلا أن التحرشات لا زالت جارية في منطقة شارع الشط ولا زالت المدفعية تدك آبار بومليانة ،ولا زلنا نرى العرب يخرجون من بقايا المنازل التي كانوا متحصنين بها ويهربون نحو الصحراء . ان الخسارة التي ألحقناها بالعدو لا تقدر بشكل دقيق إلا أنها لا تقل عن ألفي قتيل ، وقد أحصينا ٦٧٠ جثة في مسافة الميلين التي تمتد من سيدي المصري إلى بومليانة ، وبلغت خسائرنا ١٣٠ قتيلاً و ٣٩٨ جريحاً ، وكانت قوة العدو لا تقل عن ٨٠٠٠ رجل .

لقد خسرنا من بين رجالنا الضابط ڤيري من رئاسة الأركان عندما كان قائماً برحلة استطلاعية في منطقة الهاني وتقدم في احدى اللحظات الحاسمة في الخط الأمامي مع إحدى فرق المشاة وصرخ في رجالها: «الى الأمام أيها الرجال» ورمى بنفسه على العدو ، وأعاد الكرة من جديد وصرخ « إلى الأمام يا رجال غاريبالدي » وهنا أصابته رصاصة مسدس في رأسه ووقع قتيلاً .

ان قتل الضابط ڤيري خسارة فادحة لنا لأنه يعرف جغرافية طرابلس، بل يعرف طبيعة كل شبر في هذه الأرض لأنه درسها قبل المجيء الى هنا. وقد أفادت نصائحه رئاسة الأركان العامة فائدة عظيمة . ان ضباط قواتنا لا يخافون الموت ولا يتأخرون في تحديه ويقفون في المناطق التي يراهم العرب فيها ، أما الضباط الأتراك فبالعكس ولا يمكن أن نعرفهم إلا وهم قتلى، إذ نجد ملابسهم التركية تحت « الجرد » الطرابلسي ، ولا يستطيع المرء أن يميزهم من العرب الغائرين إلا بمراقبة الميدان حتى يراهم يعطون الأوامر . وقد رأينا أحدهم يحث رجاله على القصف على مراكزنا فارديناه في الحال قتيلاً .

وقد خسرنا أيضاً الضابط بيرتاسو الذي كتب وصيته قبل المجيء للحرب وأوصى بمبلغ خمسة آلاف فرنك لرجال وحدته شرط أن يشرب الضباط نخبه . لقد تصرف رجالي في المعركة بكل بطولة ! أين تعلموا هذه الخبرة في الحرب ! انه من المشرف جداً أن يراهم المرء وهم يحاربون ويدافعون عن خنادقهم برباطة جأش وثبات . انهم أبطال — لقد ولدوا أبطالاً ! .

إن معركة سيدي المصري — ٢٦ اكتوبر سنة ١٩١١ — تستحق بحق أن توصف انها معركة ، سواء من ناحية الأعداد التي اشتركت فيها أو من ناحية المعارك ، وهي تمثل اختلافاً كلياً من عما سبقها من معارك .

اننا لم نبدأ في اتخاذ موقف المهاجم الآن لأننا لم ننشىء قواعد ثابتة لنا هنا حتى نعتمد عليها فيما قد نقدم عليه من توسع ، ومن الطبيعي أن تبقى قواتنا الآن في مركز المدافع فقط رغم انها نزلت في طرابلس وبنغازي وغيرهما. لكن

قيادتنا قد اتخذت موقف المعركة المضادة في سيدي المصري وردت العدو . وقد اعتمد الاتراك في معركة يوم ٢٣ اكتوبر على خيانة العرب لنا ، أما في معركة يوم ٢٦ فقد اعتمد الأتراك على عدد قواتهم في قتالهم . وها نحن قد خيبنا آمالهم اليوم مثلما خيبناها سابقاً في يوم ٢٣ و كبدناهم خسائر فادحة . ولكن معركة يوم ٢٦ تمثل بالنسبة لنا مستقبلاً مخيفاً ، لأننا لم نستطع ملاحقة العدو فقط بل واستطعنا أن نحول بعض القوات من الجناح الأيمن إلى طرفنا الغربي ، كما جنينا فائدة هـــذه الخطوة الجبارة الخطرة وأصبح انسحاب العدو هزيمة وفوضى. لقد تضاعفت الأضرار التي ألحقناها به واستولينا منــه على كميات من البنادق والخناجر والرشاشات والأسرى كما استولينا على علمه أيضاً. واننا لا نأسف على شيء إلا على عدم وجود فرق خيالة كافية حتى تطارد العدو وهو منسحب، ولا ننسى أن الحصان الأوروبي لا يستطيع أن يتحرك بسرعة في رمال طرابلس .

وقد اشترك رجال الطيران في معركة المصري لأول مرة في التاريخ العسكري، وحلق رجاله على ارتفاع ١٨٠ قدماً وزودونا بالمعلومـــات عن العدو ومراكزه وتجمعاته . وباختصار فإن معركة المصري معركة بمعنى الكلمة ومـا على العرب والأتراك إلا أن يقتنعوا بمقدرة و كفاءة قواتنا عسكرياً .

الفصل التاسع

المقاتل العربي

إن الارض التي أمام خنادقنا مملوءة بالقتلى، ونحن نلاحظ أنهم جميعاً متجهون في اتجاه واحد هو الاتجاه نحو خنادقنا وهم ملتفـّون في « جرودهم ». ونظرهم مخيف حتى وهم ميتون. انهم مسلحون ببنادق الموزر ولديهم أكياس أو «مخلاة» بها بعض السكر والشاي ونسخة من القرآن في أغلب الاحيان منقولة بكتابة اليد . ومن الخطر جداً أن يقترب المرء من قتلى هؤلاء الغجر لأن بعضهم جرحى فقط .. ولكنهم يتظاهرون بالموت حتى يطاردوا رجـــال الصليب الاحمر . وقد جاءت عربة الصليب الاحمر في إحدى المرات ووقع أحد رجالها قتيلاً لأن العربي اطلق عليه النار في الحال . بل ان بعضهم لا يتوقف عن اطلاق النار طالما انه يجد وسيلة يتحصن بها .

ولكن هناك غطاء الجبن في المحارب العربي تحت غطاء الشجاعة التي نراه ، وما ان ينكسر بظاهره حتى ينكشف غشاء الذل والكذب. ويظهر أن الخيانة جزء من طبيعته . وقد عثرنا على أحد العرب ولم يتوقف عن ترديد عبـــارة « بون جورنو ، بون جورنو » لأنها هي العبارة التي يعرفها ويحاول بها أن ينال صداقتنا .

أما الأتراك فلا يختلفون عن العرب كما كشفت لنا الحوادث . وقد كانت إحدى عربات الحراسة الإيطالية في طريقها فأطلق عليها البدو الذين كانوا تحت

قيادة ضابط تركي النار ،ورد رجال الحراسة الإيطاليون على النار بالمثل فجرحوا الضابط وقتلوا أحد العرب ، وبدأ الضابط التركي يستغيث طالباً النجدة. وتقدم له الإيطاليون فأطلق النار مرتين ولكنه لم يصب أحداً ، ثم مات فيما بعد واسمه عثمان المهدي .

لا يطلق العربي النار علينا إلا وهو في مكان امين ، وان هاجمناه فر ، وإن عدنا أطلق النار على ظهورنا . انه يخاف أن يلتقي بنا ، وان التقينا نظر الينا وكأنه حيوان ثائر . ونحن نشعر بنظرات العرب الحادة في طرابلس ، ولكن ان توقف أحدنا وقابل هذه النظرات بنظراته رمى العربي نظرته وحيّانا بكل خوف . ولا يقدم العرب على الهجوم علينا إلا عندما تكون نسبتهم ضدنا نسبة عشرة إلى واحد كما كان الحال في يوم ٢٣ اكتوبر ،أو عندما يسيطر عليهم الشعور الديني كما فعلوا يوم ٢٦ من نفس الشهر . أما الجندي الإيطالي فهو بعكس هؤلاء العرب لأن الاعمال البطولية هي التي تقوده .

الفصل العاشر

فن السيطرة على العرب

إن العرب الذين اشتركوا مع الاتراك في القتال الذي نشب في يومي ٢٣ و ٢٦ اكتوبر أتوا من قبائل ترهونة وغريان ومصراتة وتاجوراء . وقد أخبرنا جواسيسنا من بينهم انهم كانوا مجبرين على السير في المقدمة بالمعارك لأن الاتراك وضعوا زوجاتهم كرهائن ويهددون بقتلهن إن لم يغزوا الخطوط الإيطاليـة . وهذه الطريقة طريقة تركية عادية ، لأن الاتراك اتبعوا نفس الخطة مع الفرق الالبانية في حربهم بألبانيا وأجبروا الالبانيين على محاربة اخوانهم . ومهما كان الامر الآن فإن شراسة العرب في القتال واستيلاءنا على رايتهم لدليل واضح على إقامة حرب جهادية ضدنا .

ان القوات العربية مختلطة بالاتراك ويقودها ضباط أتراك، ومدربة تدريباً حسناً على إصابة الهدف ، ونحن نعثر على إرشادات مكتوبة لاستعمال السلاح مع بعض القتلى . وقد أخبرني أحد الاسرى العرب ان سبب ولاء العرب للاتراك عائد أولاً إلى الشعور الديني ثم إلى شعورهم ان اللحظة الآن لحظة حاسمة ، وأن الاتراك استطاعوا أن يقنعوهم أن قوات احتياطية لهم ستأتي عن قريب لحسم الموقف ضد إيطاليا . وأخبرني نفس العربي أن مجموعة من الاتراك الذين فروا من طرابلس يوم ١٥ اكتوبر وقعت في هجوم قام به سكان جنزور والزاوية ضدها . وكان الاتراك مخيرين بين الفناء على يد العرب الذين يحبون

الغنائم والتخريب وبين الوقوع أسرى في أيدي القوات الايطالية. ولكن هؤلاء الاتراك فنانون في طرق السيطرة إذ استطاعوا أن يجمعوا العرب جميعاً في بقعة واحدة واستولوا منهم على سلاحهم ومـــا معهم، وأخذوا منهم مئة عربي وحوشوهم أمامهم كأسرى. وفي اليوم التـــالي بدأ الانهزام يظهر على العرب خاصة بعدما نسفهم الاتراك بالعصا وصرخوا في وجوههم تارة بعد أخرى «لماذا يا كلب تهاجمنا»؟ وتباكى العرب «سامحني: لقد هاجمتكم لأننا رأيناكم تتركون طرابلس ولم تعودوا قادرين على حمايتنا، ولو أخذناكم أسرى لما وقعت الحرب ولما لحق بنا وبمصالحنا أي ضرر». وهنا فهم الاتراك الخطأ الفادح الذي ارتكبوه بترك طرابلس وعرفوا ان شرفهم قد تعرض للاحتقار، وهاهم الآن يقومون بالغارات طوال شهر اكتوبر حتى يكسبوا العرب من جديد.

وقد مدح الاسير العربي رباطة جأش الأتراك وصبرهم، وأخبرني انه قد هجم مرة مع ٧٠٠ رجل من ترهونة على معسكر أتراك به ٨٠ تركياً فقط وطالبوا قائد المعسكر التركي بالتنازل عن صناديق الذخيرة التي معه فقال لهم: «طبعاً انها لكم، هيا تعالوا وخذوها! هيـــا» وكان وراءه عشرون جندياً تركياً مستعدين ببنادقهم. فأشار شيخ ترهونة إلى رجاله للانصراف بعد مـــا رأى موقف الاتراك واندفع نحو الضابط التركي وعانقه قائلاً: «انكم رجال» فقال له التركي: «وأنتم كلاب»، ومنذ ذلك اليوم أصبحت ترهونة إحدى حلفاء الاتراك.

ودعني أروي لك مثلاً آخر. لقد طلب العرب من الاتراك بدء المفاوضات مع الإيطاليين عندما لاح لهم الاسطول الإيطالي على شواطىء زوارة، ولكن القائد التركي رد عليهم «لماذا؟ ان الموت وراءنا جميعاً، وليس من المهم وقت حدوثه! هل أنتم خائفون من الموت في سبيل الله؟ انكم مجانين! اننا لن نموت إلا متى أراد الله لنا أن نموت». وهكذا بقي سكان زوارة معارضين لنـــا رغم قصف مدينتهم.

وتنقل القوافل هذه الحكايات من مكان إلى آخر ، ونسي العرب أحقادهم القبلية وخلافاتهم ويسيرون الى معسكرات الاتراك..ولكن الاتراك يستقبلونهم بكل اللا اكتراث أو تكبير حتى يطبعوا فيهم شعور ان الاتراك غير محتاجين لأي مساعدة إضافية . ان القبائل العربية تنهال عليهم وتمر أمام خيـام القيادة التركية مكبرة ومرددة صيحات الحرب ولا يخرج لها تركي واحد للترحيب بها . ويصرخ البدو « يعيش السلطان ، يعيش أبطاله ».. ولكن الاتراك لا يجيبون ، ويستقبل الاتراك الشيوخ فقط ان تقدم الشيوخ بطلب للمقابلة ، ويتولى نشأت باي ومساعدوه الذين لا تزيد أعمارهم عن الاربعين إصدار الاوامر إلى رجال القبائل الذين يزيد عددهم عن عدد القوات التركية . ومما لاشك فيه أن الاتراك يعرفون أكثر مما يعرف الإيطاليون فن السيطرة على العرب . اننا نعامل هؤلاء العرب كأوروبيين وليس كأفراد سيطر عليهم الانحطاط والاسترقاق .

الفصل الحادي عشر

أيـــام الرعب

لقد رتب الاتراك والعرب الذين ثاروا ضدنا وراء صفوفنا لمعركتي يوم ٢٣ و٢٦ اكتوبر مقدماً ، وتوقفت المعارك الرئيسية .. ولكن هؤلاء العرب لا زالوا يطلقون النار هنا وهناك .

وقد قررت القيادة أن تضيّق خطوط دفاعنا لمسافة ميـل في منطقة الهاني حتى نعطي لرجالنا فرصة للاستراحة ونقوي مراكزنا ونتفـــادى معارك مفاجئة . وقد جعلت الظروف هذا التغيير ضرورياً منذ أول يوم من إنزالنا لأننا عرفنا أن خطوط دفاع طويلة مبعثرة قد لا تستطيع الوقوف ضد غارات العدو . ان تضييق منطقة الدفـــاع سيساعدنا بالإضافة إلى تقوية مراكزنا في جعل قوات أكثر في معسكر الاحتياط مستعدة للعمل ضد أي ثورة يقوم بها السكان . وأصدر الجنرال كانيفا الامر منذ يوم ٢٣ أكتوبر بتجريد السكان من السلاح وعثرنا على أنواع عديدة من الاسلحة مخبأة في كل مكان، ورفض العرب تسليم أسلحتهم وأطلقوا النار علينا ، وألقينا القبض على مئات منهم وجئنا بهم إلى طرابلس .. ومن قاوم قتلناه في الحال .

وقد حاول الجنود الإيطاليون كل ما في استطاعتهم حتى لا يقع أي بريء ضحية لهم ، واني مستعد لاتهام أنفسنا اننا كنا في أيام ثورة السكان ضدنا متساهلين في معاملتنا لهم ، لأن المعاملة العسكرية الصرفة التي بدأت أخيراً

استطاعت أن تفرض الهدوء والسكينة في المنطقة وبدأ العرب في خشيتنا خاصة عندما يسمعون صوت البنادق .

أما طرابلس فهي مطوقة الآن بخط دفاع محصن جداً . وقـد منعنا مرور القوافل العربية إليها ، ومنعنا الاقتراب من خطوط دفاعنا ، وأعطينا تفويضاً بإطلاق النار على كل شخص يرفض الوقوف ان طلب منه الحرس ذلك. والاتراك الآن لا يعرفون شيئاً عن مواقعنا ، ويكتشف رجالنا كميات الأسلحة المدفونة تحت الأرض وقد جمعوا حتى الآن مليون طلقة. انهم يعثرون على هذه الاسلحة والذخائر حتى في أكوام الشعير والآبار وسقوف المنازل . وعرفنا أن طرابلس كانت عبارة عن مركز ذخيرة تمر منها الامدادات إلى الاتراك عن طريق القوافل . وفي احدى المرات رأينا جنازة عربية مارة بالقرب من تحصيناتنا فأوقفناها وفتشناها ووجدنا بها بندقية رشاشة تحتل محل الميت كانت مهربة إلى الاتراك. وسنستمر في تجريد العرب من السلاح، وهذه هي الطريق الوحيد. إن العدو الذي يكرس نفسه لمحاربتك يستحق وقوفك ضده . ان العدو الذي يطعنك من الخلف يستحق الموت .

ان الاسلحة والذخائر التي يستعملها العرب أتت من الباخرة درنة التي تركناها تمر وبالغنا في احترام القانون العسكري آنذاك لأن فترة الإنذار لم تنته . ومن الواضح جداً الآن ان تنظيف الواحة من الأسلحة أمر ضروري الآن ، وحين يتم هذه سيكون في استطاعتنا قهر الاتراك . والحرب الآن تدور حول مكان واحد وهو الواحة ، واننا سنعد من المجانين ان فكرنا في التقدم نحو الدواخل قبل أن نصفي مشكلة السكان هنا . ويصعب بحق على من لا يعرف هذه البلاد تخيل الخطر الذي نحن فيه .. ان الحيلة تلعب دوراً كبيراً في الحرب، وهناك الآلاف من السكان المسلمين الذين يسرحون في فيافٍ لا حدود لها ، وأشجار النخيل كثيرة مبعثرة في كل مكان والعربي يبقى في رأسهـــا ليل نهار كالقرد بكامل سلاحه . ويختفي العرب في أي مكـــان ، ومن

الخطر أن يقدم الفرد على التقدم نحو أي بقعة . وقد لاحظنا أن حيطان المنازل مثقوبة حتى يستطيع المتحصنون بها إطلاق النار علينا . وباختصار فإن العمليات كلها عمليات قرصنة لا غير . اننا الآن لا نواجه عدواً وجهاً لوجه وإنما نحن واقفون ضد قراصنة يدفع لهم الاتراك الثمن. ونحن نتبع الآن سياسة تناسب الموقف ، إذ اننا نقتل من يقاومنا ونأسر من يستسلم وننقله إلى المعسكرات بطرابلس . وقد شحنا حتى الآن مئات من الأشخاص الذين رأينا أنهم خطر علينا إلى إيطاليا رأساً . ان من حقنا أن نقتل أي شخص ارتكب جريمة ضدنا ، إلا أننا نكتفي بعض الأحيان بربط ورقة في رقبة مقترف الجريمة تصف الذنب الذي ارتكبه ونرسله إلى المعسكر في المدينة بدل قتله .

وقد كان من بين المعتقلين سيدي نبوي الذي اشترك منذ سنتين في قتل الصحفي الإيطالي غاستوني ترسيني . وقدمناه للمحاكمة واعترف بذنبه وصدر حكم الإعدام ضده .

إن بعض ضباطنا طيبون ويتساهلون في تطبيق القانون العسكري الذي أصبح نافذ المفعول منذ يوم الثورة . وهناك عربي في بقعة ما الآن يطلق علينا النار وأسقط ستة من رجالي ، لكننا لا نعرف أين هو .

وقد انهمر علينا الرصاص قبل قليل من قمم أشجار النخيل المحيطة بنا واسقط عدداً من رجال فرق الهندسة التي كانت تمسح المنطقة وتعد أماكن قطع المدفعية التي ستأتي من شارع الشط ، أما مساعدي الذي أرسلته إلى طرابلس فقد ذهب ولم يعد لأنه جرح في الطريق ، ولا نعرف أين اميرتو دي مورتاس جرّاحنا لأننا لم نره منذ نهار أمس . إنني أخشى أن يكون العرب قد اختطفوه لأن هؤلاء العرب يهاجمون الإيطاليين متى رأوهم معزولين ويستولون على طعامهم ويبدأون في أكله حالاً . وقد ألقينا القبض على تسعة من العرب ووجدناهم يلتهمون طعام الجنود الإيطاليين الذين نقلناهم . أما جثث القتلى العرب فضعيفة جداً ونحيفة مما يجعلنا نعتقد أن إقدامهم على القتال لم يكن للعامل الديني فقط

بل ان عامل الجوع أيضاً قد لعب دوراً في دفعهم إلى الهجوم علينا. وقد أخبرني أحد الأسرى العرب ان زملاءه كانوا من قطاع الطرق من سكان غريان الذين أغراهم الأتراك ودخلوا الحرب لأنهم تصوروا أن النصر سهل المنال ، وانهم سيستولون على الغنائم من الايطاليين . وبالاضافة إلى هذه الاغراءات هنـــاك فتاوى العلماء التي تحث العرب على مقاتـلة الكفرة الإيطاليين ، كما تعد القتيل العربي بالجنة . ويشجع الأتراك المحاربين العرب بدفع عشرة ثالير لكل من يأتي منهم بإيطالي حياً كان أو ميتاً. وهذا يكشف لي السر في فقدان خمسين رجـلاً من رجالي الذين اختفوا عندما اندلع القتال بالسلاح الأبيض في معركة يوم ٢٣ من أكتوبر . وتفاعلت عوامل وعود العلماء وجوائز الأتراك ودفعت بالعربي للارتماء علينا في شكلِ قاتل مجرم لا في شكل عدو أمين .

لقد استقبل أحد مستشفياتنا السنيور كولومبو أحد رجال البيرزالييري ووجده شخصاً أصمّ منهاراً عصبياً بسبب شناعة ما رأى من مشاق . وقدم هذا المسكين أقواله كتابة ووصف ما جرى له . وقـــد كُلف وعشرة من رفاقه في معارك يوم ٢٣ بالرد على مجموعة من المقاتلين العرب الذين كانوا يسلطون نيرانهم على أحد مواقعنا، وقُتل جل رفاقه وأسر العرب من تبقى منهم على قيد الحياة . ثم أخذوهم إلى إحدى أحراش النخيل وجردوهم من ملابسهم وربطوهم على جذوع الأشجار، ووقف الأتراك يبصقون على وجوههم ويكيلون لهم الاهانات ويرشدون العرب لتنفيذ طرق التعذيب . وبدأ العرب يضربونهم فسمع رجال الصليب الأحمر صراخهم وأتوا لنجدتهم وفر العرب والأتراك .. ان وصف حالات كهذه يدل على ان القوانين والطرق الصارمة التي تتبعهـــا السلطات الإيطالية في خنق وتصفية التحامل ضدها اجراءات لا غبار عليها .

إن الموت يتصيدنا في كل مكان بهذه الواحـــة .. جرح الضابط بروتشي وأخذته سيارة الاسعاف إلى المستشفى ، لكن العرب هاجموه مرة أخرى . وقُتل الشخصان اللذان كانا يشرفان عليه أما هو فقد أطلق على نفسه الرصاص

حتى لا يقع أسيراً لدى العرب ، وانتقم العرب من جثته فنحروها بالخناجر والسكاكين .

ولا زال العرب رغم كل ما عملنا من احتياطات متحصنين بالمنازل حتى يوم ٢٧ ، يطلقون علينا النار ويقتلون جنودنا ، فاضطررنا لاستعمال المدفعية ضد هذه المنازل . وأقل ما يمكن أن أقوله عنها هي أنها كانت ترسانة من الأسلحة والمعدات. وقد فهم الجنرال كانيفا الوضع وأصدر الأوامر الحاسمة لتنظيف هذه الواحة تنظيفاً كاملاً ، وقررنا نقل جميع السكان بأمتعتهم وحيواناتهم وجمالهم إلى طرابلس .

وبدأنا في إرسال المئات من المشبوهين إلى إيطاليا ليبقوا هناك حتى تنتهي الحرب ، أما الذين بقوا محاربين من العرب فقد تركناهم بطرابلس ، ووضعنا النساء والأطفال في المساجد وقدمنا لهم الطعام والشراب والعلاج الطبي،واخترنا الأقوياء من أسرى الحرب العرب لاستعمالهم — حتى نعاقبهم — في بناء خنادقنا ومراكز دفاعنا. وقد كان نصيبي ووحدتي العسكرية مجموعة من هؤلاء الأسرى. وإني أستغرب جديتهم في العمل عن طيب خاطر ، وهذه المجموعة مكونة من رجال فزان الذين يعملون نصف عراة والعرق يتقاطر من أجسامهم ، وهم رشيقو القوام ويظهر أنهم مقتنعون بمصيرهم .

وشكلنا لجنة منذ يوم ٢٧ أكتوبر بعضوية حسونة باشا عميد بلدية طرابلس للتحقيق مع السجناء الذين هم الآن يقيمون على نفقة الحكومة الإيطالية ويشرف رجال الكارابينيري على أملاكهم .وجمعنا كل أشيائهم القيمة وأودعناها كأمانات في بنك روما بطرابلس ؛ ولم تحدث أي حادثة نهب لأن الجيش كان يتصرف بعين واعية .

ومن المحتمل أن يكون صبي أو امرأة أو عجوز قد وقع قتيلاً إبان القتال الليلي، ولكننا يجب ألا ننسى طبيعة القتال الذي يهاجم فيه مجرمون ، لا أعداء شرفاء ، قواتنا ومواقعنا .

أما إجراءاتنا الرادعة فلم تدم طويلاً ، واني لا أتردد أبداً في وصف أنها كانت غير كافية لأن إطلاق النار لا زال مستمراً ضدنا رغم أحكام الاعدام .

إن الجندي الإيطالي رقيق القلب ولا تعرف القسوة قلبه ، انه رحيم وينسى الإساءة وتستولي الشفقة عليه . ولم تحدث حادثة واحدة غير طبيعية نتيجة لإجراءاتنا ، وكل مـــا حدث كان عبارة عن إجراءات استعملتها الحروب الاستعمارية كلها – بما في ذلك الحروب الاستعمارية البريطانية – قبلنا . ولم نتخذ أي إجراء إلا بعد أن فرضته علينا الظروف للدفاع على أنفسنا. والعرب أنفسهم يعترفون بهذا . ولا تعدو جريمتنا – إن كان التعامل باخلاص وأمانة يعد جريمة – كوننا حاولنا أن نجعل الاخلاص والأمانة مبدءاً لنـا . ان الخيانة فاجأتنا ولكنها لم تقهر وجودنا . ومن الآن فصاعداً سنعرف كيف نواجهها . والخلاصة هي أن حرباً صغيرة قد أصبحت الآن حرباً ضروساً !

الفصل الثاني عشر

إعدام مترجم

ألقينا القبض في الأيام التي تلت ثورة السكان ضدنا على ١٥٠٠ عربي وأرسلناهم إلى إيطاليا ، وأعدمنا منهم مئة بعد أن تم الإثبات انهم مجرمون في حالات اغتيال قاموا بها ضد الايطاليين .

وقد قتل مترجم القنصلية الالمانية أحد ضباط المدفعية الإيطاليين الذي كان جريحاً في معركة يوم ٢٣ اكتوبر . وألقينا عليه القبض الآن ، وقدمناه للمحاكمة وصدر حكم الاعدام عليه . انه رجل قصير القامة ، عيناه حادتان وأنفه مفلطح ، وهو من مواطني مدينة فاس المغربية ، اسمه حسين بن عقد المولد.وقد جاء إلى المحكمة وكأن كل شيء عادي حوله ، وكان مرتدياً « جرده » الذي يلفه من قدمه حتى رأسه ، ولم يأبه بشيء إلا بالالتفات مرات قليلة ليرى ما حوله ، وسمى نفسه « الوكيل القنصلي العسكري للجيش الإسلامي » . وكان أحد المترجمين يترجم لنا أقواله ، ولكننا اكتشفنا فيما بعد انه يعرف اللغة الإيطالية . وقرأ عليه كاتب المحكمة التهمة الموجهة ضده وهي تهمة القتل بسبق الاصرار والتعمد ، وسأله عن أقواله . ورد حسين باللغة العربية « لم أرتكب تلك الجريمة » وهنا أبرز رئيس المحكمة خنجراً وأراه الحسين وسأله « هل هذا الخنجر لك ؟ » وقال حسين : « نعم انه لي » ورد عليه رئيس المحكمة « وبه قتلت الايطالي ! هل لديك أقوال أخرى ؟ » فرد حسين « لا شيء ». ثم تقدم الضابط كاستولري

من رجال الكاربينيري وأعطى كل الأدلة والمعلومات . وسأل رئيس المحكمة حسين « هل تفهم كل ما قاله ؟ » فقال حسين : « نعم ولكنه أكاذيب » فقال الضابط : « انه* حقيقة » . فانفجر حسين قائلاً : « آه يا كذاب يا جبان » . وبعد ذلك بدأت المناداة على الشهود . وكان أولهم فتاة عمرها ١٤ سنة رأت الجريمة تقع أمامها . ووصفت كل التفاصيل بدقة كاملة . ثم تلاها رجل عربي متقدم في السن وأقسم باسم الله انه رأى المتهم يحمل سلاحاً وجارياً وراء الإيطالي المجروح ، ولكنه لم يره يرتكب عملية القتل . وبعده جاء الشاهد الثالث وهو العربي بن سالم ، وشهد انه رأى المتهم يتجه نحو الايطالي ثم رأى خنجره يقطر بالدم . وسأل رئيس المحكمة حسين « والآن ، هل سمعت ما قال الشهود ؟ » فرد حسين «نعم لقد ذهبت إلى الإيطالي ولكني لست الشخص الذي قتله » . ثم انصرف الشهود وعقدت المحكمة جلسة الاستشارة ، وكان حسين جالساً . ثم عادت المحكمة ، وتقدم ضابط إيطالي للدفاع عن المتهم قائلاً انه ارتكب الجريمة بدون نية كاملة لاقتراف الذنب . فعقدت المحكمة جلسة استشارة أخرى لتداول هذه النقطة وعادت بعد نصف ساعة من الزمن ونطق رئيسها حكم الاعدام على حسين وسأله : هل فهم نص الحكم، فأجابه حسين « نعم وانه حكم ظالم والله يحميني منه » .

وصادق الوالي على حكم المحكمة. ونفذ حكم الاعدام على حسين في الساحة القريبة من البحر أمام السراي بعد أن قاده الكاربينيري إلى هناك . وقد مشى حسين إلى مكان إعدامه بخطى سريعة مرفوع الرأس متفاخراً وكأن ما سيحدث له لا يعني شيئاً . ولما وصل مكانه أجلسه الجنود على كرسي وربطوه عليه ثم رفعوه الى مرتفع بسيط ووجهوا وجهه إلى الحائط حتى يكون ظهره في اتجاه الفرقة التي ستطلق عليه النار . وتقدم أحد رجال الكاربينيري وغطى له وجهه بجزء من « جرده » وخيم السكون ! وأعطى الضابط إشارة إطلاق

* كما في الأصل .

النار ، وتواصلت ثلاث مجموعات من أصوات البنـــادق في الحال . وخر حسين قتيلاً . وانحنت جثته يساراً ثم وقع جسمه على الرمـال ، وجرى نحوه طبيب جراح ! انني لن أنسى المنظر مدى الحياة . ها هي الجثة مرمية ووجهها متجه نحو البحر ومجموعة من العرب واقفة يسيطر عليها الرعب وتناقش العقوبة التي أملتها العدالة . انها درس لهم حتى يتعلموا احترام الإيطاليين .

وأصدرنا حتى الآن مئة حكم إعدام على عرب أدانتهم المحاكم لأنهم قتلوا جنوداً إيطاليين ، وقد كنـــا ننفذ حكم الاعدام باطلاق الرصاص على ظهور المحكوم عليهم ، ولكننا اكتشفنا أن العرب يذهبون إلى الموت مسرورين ضاحكين وكأنهم في احتفال . وقد اكتشفنا هذه الحقيقة بعد وقوع الحـادثة التالية : لقد كانت مجموعة من جنودنا تقود عشرة من العرب إلى مكان الاعدام، وأطلق عليها عرب آخرون النار فتفرق الجنود الايطاليون الرد على نار المعتدين وجروا وراءهم حوالي مئة ياردة ، وعـــادوا بعد ذلك ووجدوا العشرة عرب ينتظرونهم !! وشرح لنا أحد العلمـــاء المسلمين ، وهو أحد مواطني طرابلس المعروفين ، السبب في ذلك : وهو أن المسلم لا يخاف إلا من الموت شنقاً لأنـــه يعتقد أن روحه سوف لن تترك جسمه ، لأن خنق البلعوم يمنعها من مغادرته إلى الجنة المحمدية والتمتع بها مقابل قتل الكفار المسيحيين . وبعد أن عرفنا هذا التفسير بدأنا في تنفيذ الاعدام شنقاً . وارتعب العرب عندما عرفوا اننا غيرنا طريقنا . وما ان نفذنا حكم إعدام واحد بهذه الطريقة في السوق حتى اختفى إطلاق الرصاص ، وبدأ العرب يحيوننا قائلين « مساء الخير أيها الايطاليون الطيبون » كلما مروا بنا .

الفصل الثالث عشر

قراصنة الصحافة

اننا نواجه قرصنة الصحافة بالإضافة إلى قرصنة سكان طرابلس . وقد أثارت الاجراءات التي اتخذتها السلطات الإيطالية في كبح جماح الثورة التي هبت ضدنا عواطف الصحافيين الموالين لتركيا وبدأوا يصفوننا بالقسوة وبقتل الأطفال والنساء والسكان المسالمين . وجعل هؤلاء الصحفيون إيطاليا في موقف مؤلم ، إذ وجدت أبناءها يقتلون على أيدي العرب والأتراك وهي نفسها تقع في اتهامات الصحف الأجنبية — وبالذات البريطانية — لها بالقسوة والعنت .

ولكن يجدر بنا أن نذكر أن الصحف البريطانية المحترمة لم تنزل من كرامتها ولم تنقل الأخبار القائلة ان إيطاليا قد ارتكبت إجراءات غير لازمة أو غير ضرورية . ولم تبدأ الحملة وتشعلها إلا الصحف الوضيعة التي تعيش على نشر الأخبار التي تثير العواطف في قرائها ، ولكن رخص هذه الصحف وقلة أهميتها لا يجعلنا نتغاضى عن إلحاق الضرر بالكرامة الايطالية .

ويعيش في لندن مجموعة من البشر الذين يبحثون عن السلم بأي ثمن . واستطاعت هذه المجموعة أن تثير بعض الأهمية رغم تفاهتها. وقد تزعمها في الآونة الأخيرة شخص يعيش في تخيلاته اسمه وليام ستيد : Wm. Stead . وهناك آخرون لهم مصالح مالية مع تركيا لا يشعرون بالاستقرار من جراء الحرب

الدائرة الآن، ثم هناك الانسانيون الذين هم مستعدون دائماً لاقامة زوبعة ونقاش ان تعرضت ذبابة أوروبية للقتل .

ان تركيا مريض لا علاج له، ولكنها ها هي تجد طبيبها في هذه المجموعات، وبدلاً من أن تواجه الحرب في الميدان قامت برمي نفسها راكعة للقدم البريطانية طالبة المساعدة والحماية . ولم يسمع أحد لصرخات هــذا المريض إلا أعضاء المجموعات التي ذكرناها سابقاً . وقد اقترف الصحافيون الذين دأبوا على نشر ما يسمى بالتعسف الايطالي ضد السكان العرب ذنب تزوير الحقــائق إلى جماهير القراء استجابة لضغط المصالح التي يهمها ارتفاع ترمومتر سوق الاسلام في لندن. وأصبح من الضروري جداً لهذه المجموعة أن توصف إيطاليا بالقسوة والتعسف وبخسران عشر بل عشرين بل مئة معركة في الميدان . وستستمر الحملة ضدنا طالما هناك أسباب تدعو إلى إبقاء سندات الدولة العثمانية عالية الأسعار في سوق البورصة .

ان هــدف الصحفيين الذين يتلاعبون بالعواطف والمجموعات التي تنادي بالسلم يرمي الى إثارة الغضب في الدول المحايدة حتى يجرها إلى مؤتمر دولي لإنهاء الحرب خدمة للمصالح التركية . وليس هناك أي هدف غير هذا الهدف وراء كل الأخبار المزورة التي ترسل من طرابلس واستانبول والتي تشيد بالانتصارات التركية ، وتندد بما يسمى بالتعسف والمذابح الايطالية ، خاصة بعد معركتي ٢٣ و ٢٦ اكتوبر عندما جاءت الأخبار إلى بريطانيا تقول ان الايطاليين لم يتعرضوا لأكثر من جرح أربعة جنود منهم ، ولكنهم قاموا بذبح أربعة آلاف مواطن عربي . وعُقدت الاجتماعات بعد ذلك لزيادة ترويج هذه الأخبار الزائفة . ان البرقيات المزورة التي يصدرها الأتراك تحول الانتصارات الإيطالية إلى هزائم ، وأرسل بعض الصحفيين صور العرب الذين قتلوا في ميدان الحرب وهم يحاربون ونشروها في الصحف الرخيصة تحت عناوين تقول «الجنود الايطاليون يجزرون العرب المسالمين» أو «الجنود الايطاليون يذبحون النساء والأطفال» وهم يعرفون

مقدماً أن « الجرد » سوف يخفي عن القارىء البريطاني معرفة فيما إذا كانت الجثة جثة رجل مقاتل أو جثة امرأة مسالمة . وقد تحمس أحـــد المراسلين البريطانيين في إحدى برقياته التي أرسلها من طرابلس إلى لندن وقال : « يجب أن تتدخل بريطانيا لإنهاء هذه الحرب باسم المسيحية » وصدر أخيراً كتابان* مملوءان بالأكاذيب ضد ايطاليا ، وعلقت جريدة الايفننج ستاندارد الصادرة يوم ٢١ ابريل سنة ١٩١٢ على أحدهما قائلة « مخطىء لدرجة العار في كل الأخبار وغير متناسق » . ولا يوجد شخص واحد من هؤلاء الصحفيين إلا وينتمي إلى مجموعة من المجموعات الثلاث : المسالمين ، أو الانسانيين ، أو الماليين ، الذين لا يمكن أن يأخذ القارىء البريطاني كلامهم مأخذ جد دون أن يفسر الأحداث .

ويمكن لنا أن نضيف إلى رجـــال هذه الفرق رجلاً آخراً تعددت مهنه وخبراته وامتزجت وحوّلته من بائع تذاكر قطار ، وبحار ، وعامـــل منجم ورجل تحري وممثل إلى — صحفي يخدم بقلمه المصالح التركية !! وقد جاء هذا الرجل إلى طرابلس وتحمس تحمساً هائلاً ، فلم يكتف بالكتابة فقط بل قـــاد مجموعة من العرب في رحلة استطلاعية ضد مراكز دفاعنا وأطلقنـــا عليه الرصاص وقـُتل دافعاً ثمن حبه للأتراك . إن الأشخاص الذين هم من طينة هذا الشخص هم المسؤولون عن تشويه سمعة ايطاليا وسمعة جيشها في بريطانيا .

ويستعمل هؤلاء الصحفيون شتى الطرق لاستغلال الظروف ضد ايطاليا ، ففي شهر نوفمبر الماضي مثلاً قاموا بتوزيع مذكرة في لندن عمـــا سموه بالقسوة الايطالية وذيلوا هذه المذكرة بتوقيع ثلاثة صحفيين، وكان اسم المستر او دافيز من بين الاسماء الثلاثة . ولما عاد الى لندن واكتشف وضع اسمه من ضمن الموقعين على المذكرة ثار جداً ونشر في جريد التايمز تكذيباً ذكر فيه انه لم يرغب في وضع اسمه ، وأنه لم ير أي قسوة إيطالية ضد السكان العرب ، واحتج على وضع

* انتظر صدوره « مع الاتراك في طرابلس » وهو أحد هذين الكتابين . مطبوعـــات الفرجاني — ص ب ١٣٢ طرابلس ليبيا .

اسمه دون الاستئذان منه. أما بول ترسان مراسل جريدة جورنال دي مارسيليا فقد استغرب بعد عودته الى فرنسا وجود برقيات موقعة باسمه تمجد الانتصارات التركية، لأنه لم يرسل أي برقيات من هذا القبيل. وقد طرد الجنرال كانيفا جميع المراسلين الذين يكتبون ضد ايطاليا من طرابلس، ولما عادوا إلى لندن بدأوا في حملة مناوئة لإيطاليا بعقد الاجتماعات وبالكتابة في الصحف وبتأليف الكتب.

وكان اجتماع يوم ٢١ نوفمبر الذي عقد في موريال هول في لندن أحد الاجتماعات التي يقوم بها هؤلاء الصحفيون. وترأس المستر وليام ستيد هذا اللقاء وألقى فيه المتكلمون العبارات الضخمة ضد القوات الايطالية، وهاج الجمهور واضطر رئيس الاجتماع الى المناداة بمراعاة النظام. ووزع الصحفيون المطرودون من طرابلس منشورات عما سموه «بالمآسي التي يرتكبها الايطاليون». بل ان حفنة من الأعضاء الذين لهم مصالح مالية بتركيا أقدمت على توجيه أسئلة إلى وزير الخارجية البريطانية عن مدى الرغبة البريطانية في التدخل في الحرب، ووزعوا مذكرة على أعضاء مجلس العموم واللوردات واستطاعوا الحصول على توقيع بعض الأعضاء.

لكن جميع هذه المحاولات فشلت في زحزحة موقف الحياد الذي اتبعته الحكومة البريطانية في الحرب الدائرة بين الدولتين – تركيا وايطاليا. إلا أن الإيطاليين يخشون من خطر آخر وهو إمكانية نجاح هذه الحملات في تغيير الصورة التي يحملها البريطانيون عن الشعب الإيطالي وعن مدنيته الرفيعة وجيشه الذي يعد جيشاً من الدرجة الأولى. وإني أؤكد للتاريخ ان الايطاليين بطرابلس لم يسيئوا استعمال قوتهم أبداً، ولم يقدموا على أي فعل شنيع ضد السكان، وان الاجراءات التي اتخذوها لتهدئة الثورة التي وقعت ضدهم بطرابلس تعد اجراءات متساهلة إن قورنت بإجراءات الجيوش الاستعمارية الأوربية في إفريقيا وآسيا. وقد كتب المستر ستيد نفسه في مجلة الساترداي ريفيو الصادرة في شهر يناير سنة

١٨٨٩ واصفاً الاجراءات البريطانية ضد الهنود قائلاً : ان الجيش البريطاني كان يربط الهنود على فوهة المدافع . أما اللورد روبرتس فقد قال في كتابه المعنون « واحد وأربعون سنة في الهند » ان بريطانيا كانت تعدم المئات من الهنود الثوار باستعمال المدافع حتى تلقن — بناء على توصيات الجنرال تشامبرلن — الهنود الآخرين درسا . بل ان هذا الكتاب يروي لنا قصصاً شنيعة أخرى : منها قتل الضابط البريطاني هودسون لطفلي الملك في الهند . وقد رأيت أن أذكر هذه الحقائق حتى يعرف القراء ما فعله البريطانيون. ويذكر اللورد روبرتس في صفحة ١٣٧ من كتابه المذكور ما يلي :

« لقد التجأ آخر امبراطوري المغول إلى مقبرة هامايون التي تبعد حوالي سبعة أميال من دلهي وبقي هناك حتى يوم ٢١ وعندئذ استلم وعوداً بالمحافظة على حياته وحياة زوجته وطفله واستسلم للضابط هودسون . وأخذ هذا الضابط الأسرة كلها إلى منزل في شاندي شانك ووضعها تحت الحراسة . وقمت بزيارة هذا الملك في اليوم التالي ، لكني لم أبق معه مدة طويلة لأنه يكره نظرات الأوروبيين إليه . وفي طريق عودتي رأيت جثتي ابني هذا الملك وجثة حفيده . ولما استفسرت عن الموضوع أخبروني ان هودسون عاد إلى المقبرة وألقى القبض على هؤلاء الأطفال وأتى بهم وقتلهم » .

ويظهر أن عشاق تركيا من صحفيين وغيرهم لا همّ لهم إلا التشهير بما اتخذته إيطاليا من عقوبات عادلة ضد من قتلوا الايطاليين ونسوا أن يقرأوا هذا الكتاب الذي لم يفت أي قارىء بريطاني مثقف .

وقد وصفت بعض الصحف البريطانية الحملة الايطالية في طرابلس كحملة قرصنة دولية ، ونسوا ان الامبراطورية البريطانية نفسها مبنية على حساب خمسين دولة إيطاليا من بينها . وباختصار فإن هذه الصحف التي كرست نفسها لخدمة تركيا تستحق كل احتقار . ومن حسن الحظ أن الصحافة البريطانية

المحترمة لم تغمس نفسها في هذه الحملة ، بل بالعكس فإن بعضها قد أورد الحقائق وكذب أخبار الصحافة الرخيصة . ولنأخذ مثلاً ما قالته التايمز الصادرة في ١٠ نوفمبر سنة ١٩١١ :

« لا يمكن لأي رجل عاقل واحد ولأي جندي إلا أن يبرىء الايطاليين من تهمة المعاملة اللا إنسانية ، بل إن كل يوم ٢٣ القاسي ومشاكله ما كان ليقع لولا الانسانية الايطالية » .

واني أريد أن أقتبس بعض العبارات التي قالها جنرالات ورجال سياسة وكتاب قصصيون من بينهم المستر جوزف تشامبرلن ، واللورد روبرتس والمستر ريتشارد بوقوت ، في هذه المناسبة . وقد قـال اللورد روبرتس رداً على سؤال طَلب منه ابداء رأيه في الاجراءات التي أقدم عليها الجنرال كانيفا :

« لا أعتقد ان شخصاً له خبرة في الحروب يصدق ما يقال عن قتل الأطفال والنساء عمداً على يد الايطاليين . ومن المحتمـل أن تكون هنـاك بعض الضحايا عندما تم تطهير المنطقة ، وهذا شيء بديهي في أي حرب » .

وقال تشامبرلن في جريدة المورننغ بوست الصادرة في ٢٣ نوفمبر :

« أريد أن أعبر عن احتقاري وغضبي ضد جزء من الصحافة البريطانية التي بدأت تهاجم حكومة ايطاليا وجيشها الصديق ، لأنهـا جاءت بأخبار مغلوطة وأخفت الحقائق عن أعمال الطرف الآخر ، الطرف الذي يحارب إيطاليـا بطرابلس — ولم تذكر كيف يعامل الايطاليون الذين يقعون في الميدان . ويجب أن يتذكر البريطانيون بالشكر موقف إيطاليا تجاهنا في حربنا ضد البوير عندما كان الجيش والحكومـة البريطانية في نفس الموقف الذي فيـه ايطاليا اليوم » .

أما المستر بوقوت الكاتب الروائي فقد قال في جريدة السبيكتاتور الصادرة في ٢٣ نوفمبر :

« لقد اضطر الجنرال كانيفا لاعطاء درس للعرب الذين أدينوا بأنهم ارتكبوا بكل دناءة أعمالاً بربرية ضد من عاملهم بكل لطف وأمانة . والحقيقة تذكر أن الجنود الايطاليين كانوا يعاملون السكان بكل رقة وادب وكرم . وإني استغرب لماذا لا تهتم الصحف البريطانية بشهادة الجنرال كانيفا وتأكيدات رئيس وزراء ايطاليا التي تؤيدها رسائل وأقوال الضباط وشيوخ العرب ؟ »
ويقول اللورد دي بروك ، كما جاء في خطابه يوم ١١ نوفمبر في مدينة بريستول :

« هناك من يريد انتقاد ايطاليا في حربها ضد تركيا للاستيلاء على طرابلس . ان هذه الانتقادات مبنية على أخبار آتية من مصادر نشك في سلامتها وعلى سوء فهم للنوايا الايطالية . ويجب الا ننسى ان ايطاليا كانت دولة صديقة لنا في حرب البوير في وقت تمنت لنا فيه اوربا الدمار . وان من السهل جداً ان ينادي المرء بالمعاملة الإنسانية عندما يكون متمتعاً بسكينة منزله . لكنه من الصعب التقيد بها متى كان مواقع الخطر والخيانة في حدود طرابلس » .

ولم تستطع هذه الاقوال ولا تصريحات جوليتي رئيس الوزارة الايطالية ولا تصريح الجنرال كانيفا ان تحد من تهجمات الصحفيين الذين يريدون خدمة مصالح تركيا على حساب ايطاليا .

لقد أثارت حملات هؤلاء الصحفيين واهانتهم لايطاليا وشرفها وجيشها موجة من الغضب في الأمة الايطالية التي كانت ترى في الشعب البريطاني خير صديق . انها إهانات حقيرة ، ولكن نتائجها خطيرة ـ لأنها تثير الشكوك وبالتالي تفسح الطريق للعواطف. ان الايطاليين على حق عندما يقولون ان الصحافة البريطانية

تعطي تأييداً معنوياً للأتراك والمساعدات المادية التي تقدم للهلال الأحمر ولا تريد أن تذكر تهريب الأسلحـة الذي يتم من مصر إلى عرب طرابلس . ان أولى نتائج الحملة الصحفية الثائرة ضد إيطاليا هي احيـاء الروح القومية بين عرب شمال افريقيا ضد الأوروبيين ، فقد اندلعت ثورة في تونس في يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩١١ وأزهقت أرواح بعض الأوروبيين .. لكن فرنسا استطاعت القضاء عليها بوضع قانون عسكري موضع التنفيذ وبمحاكمة وإعدام بعض الثوار . وازداد الشعور القومي بين القوميين المصريين الذين تآمروا على الخديوي واللورد كيتشنر ورئيس وزراء مصر نفسه ، واضطر كيتشنر إلى اتخاذ إجراءات شديـــدة حتى يحافظ على الأمن والنظام بعد عمليات إلقاء قبض متعددة . ووقعت ثورة عربية قوية في المغرب في شهر ابريل من هذا العام وأجبرت فرنسا على استعمال أربعين ألف جندي للقضاء عليها . ومن الغريب أن يرى المرء الحملة الصحفية قائمة في بريطانيا التي تحكم ٨٠ مليون مسلم .

لقد عرف الاتراك انهم لا يستطيعون مقاومة تركيا بدون مساعدة العرب ، ولكن ما الذي جعل العرب يقفون في صفهم رغم كراهيتهم لهم ؟ ليس هناك جواب لهذا السؤال إلا حملات الصحف الأوروبية التي خيلت لهم ان بريطانيـا ستتدخل لطرد ايطاليا من طرابلس . والأتراك فنانون في الخداع استطاعوا استغلال الحرب وقلب الموقف الحربي وجعلوا إيطاليا في موقف خطير . واننا نسأل : لماذا تقع دولة كإيطاليا التي تحارب في سبيل السيطرة الأوروبية في شمال افريقيا وفي سبيل هزم الاسلام — ضحية للحملات ؟ ان هذه الحملات سوف لن تخدم إلا اعداء ايطاليا .

ان نتائج هذه الحرب واستمرارها يعتمد على مدى اليقظة الاسلامية ، وهذا سبب كاف لوقف هجمات الصحف البريطانية . وهل يعتقد البريطانيون أن للعرب الحق في القيام ضد الجيش الايطالي الصديق وضربه في مؤخرته بينما هو

مشغول في القتال مع عدوة في خطوطه الامامية ؟ ان التاريخ البريطاني يخبرنا ان الثورات لا يقضى عليها إلا بمثل الخطوات التي اتخذها الايطاليون بطرابلس .

إنني احذر القارىء من أن الحملات التي تقوم بها الصحف البريطانية اليوم تخدم مصالح تركيا وتلحق الضرر بالعلاقة الودية التي طالما ربطت بريطانيا وايطاليا ، ولا شك ان بريطانيا ترغب في مصادقة ايطاليا لأنها دولة بحرية ولها مصالح في البحر المتوسط ، ذلك البحر الذي بدأ الايطاليون يسمونه « بحرنا » كما سماه أجدادهم الرومان !!

الفصل الرابع عشر

إيطاليا تبدا الهجوم

لقد اضطرت القيادة لتخفيض خط دفاعنا بعد معركة يوم ٢٦ ، كما ذكرت سابقاً ، حتى تركز على المنطقة الشرقية وتمتد إلى فشلوم . وابتعدنا بهذه العملية مسافة ميل . وانتهز العدو هذه الحركة فبدأ يهجم علينا يومياً محاولاً غزو الموقع الجديد . لكننا استطعنا أن نرد كل هجوم قام به إلا هجوماً واحداً تمكن فيه من إحضار خمس قطع من المدفعية وركزها نحو الشاطىء على مرتفع صغير يعرف بالحميدية ، ولا يبعد عن طرابلس إلا مسافة ميلين فقط . ومن المحتمل أن تكون بعض الطلقات قد وصلت طرابلس . وكان في امكان السفن الإيطالية اسكات هذه القطع ولكنها بقيت على أي حال ولمدة أيام تقصف طرابلس ، وسببت لنا كل إزعاج ، وحالة لا تطاق من الناحية المعنوية والمادية . وقد زاد وضعنا سوءاً بتفسير الأتراك للإجراءات التي اتبعناها في اختصار خطوط دفاعنا وكأنها إحدى الهزائم ، رغم انها كانت انتصاراً لنا . ولم يتركوا وسيلة إلا واستغلوها في الخارج ضدنا حتى يخيلوا للعالم اننا كنا في حالة ضيق وحصار .

وقد وصلت قوات جديدة من إيطاليا وأعطت فرصة لقواتنا المنهوكة للاستراحة ، وأعدنا تحصين مواقعنا حتى عرفنا أنها أصبحت قوية كما نريدها . وقررنا بعد ذلك أن نمنع العدو من تكرار هجماته ضدنا ، بل وأن نجعلها مستحيلة في المستقبل . وخططنا بكل حكمة طريقة للاستيلاء على المرتفع الذي لا زال في يد الأتراك وبه مدفعيتهم .

وتولى الجنرال فيليس دي شاراند مسؤولية وقيادة العملية يوم ٤ نوفمبر ، وترأس قوات من الفرقتين الثامنة عشرة والثالثة والتسعين من المشاة وقطعتي مدفعية ميدان ومدافع جبال وبنادق سريعة الطلقات . ثم شن الهجوم ، وقاوم العرب والأتراك ، غير ان مقاومتهم لم تجد شيئاً ، بل ان محاولتهم للقيام بهجوم معاكس ضدنا فشلت أيضاً وهزمناهم وتعرضوا لخسائر فادحة .

ها هي اللحظة التي كنا ننتظرها أتت إلينا ، إذ أن القوات الإيطالية بدأت عمليات الهجوم بعد شهر من حالة الدفاع فقط . وتدل تحركاتنا الأولية كلها على أن النظام والسرعة والشجاعة هي مبدأ قواتنا . وقد بدأنا هذه التحركات من جناحنا الأيسر حيث هناك مقبرة القره مانلي . وما إن وصلت الساعة الثانية بعد الظهر حتى اكتسحت طوابير سوداء من قواتنا المنطقة الواقعة بجانب مقبرة القره مانلي وأصبحت مستعدة تماماً في الساعة الثانية والنصف. وتقدمت الفرقة الثالثة والتسعون متجهة نحو منطقة الحميدية ، وسار رجالها بكل دقة ونظام مستفيدين من كل ما أمامهم من التحصينات والمنخفضات الأرضية للدفاع والقصف ، وتقسموا إلى وحدات صغيرة تنقلت من بقعة إلى أخرى نحو هدفها . وبدأت بنفس الوقت مدفعية الأسطول الخفيفة في قصف المنطقة حتى تمهدها أمامهم .

ووصلت قواتنا المقبرة البريطانية الواقعة بين مقبرة القره مانلي والحميدية . وهناك اطلق عليها العدو النار وزاد مقاومته ،لأنه متحصن بالمنازل والقلعة ووراء الحيطان ومختفٍ في كل منخفض أرضي هناك . وتدريجياً ابتعد ميدان المعركة من شاطىء البحر وأصبح بالدواخل . واستمر التقدم الإيطالي بنفس الخطة التي بدأ بها ، وتوزع رجالنا يتحدون المناوشات ويردون عليها ولا يتوقفون إلا لإطلاق النار على العدو . ولا ننسى أن هؤلاء الرجال قد نزلوا بطرابلس لأول مرة ولا خبرة لهم في نوع القتال الذي يجري معنا ، لكن روح البطولة تدفعهم للمغامرة . وقد فرحوا اليوم فرحاً شديداً عندما سمعوا انهم قد اختيروا لخوض

غمار المعركة التي كنا نخطط لها . وبلغ القتال أوج قوته في الساعة الثالثة مساء. وكانت الفرقة السابعة عشرة التي تكوّن الاحتياط تنصت للعلعة البارود وتتمنى أن تكون بالميدان. ثم وصلت طلبات الامداد لجانبنا الأيمن حتى نقوي مراكزنا هناك بنفس الوقت الذي كنا نشحن فيه قطعة من المدفعية لتشق طريقها بجانب البحر حتى تصبح على مقربة من قلعة الحميدية وتقصفها . وأعددنا العربة والبغال التي ستقلّ هذه المدفعية وأرسلناها . ووصلت . وحالاً بدأت في قصف المنطقة ونخيلها . وبدأ العدو يتقهقر ، وانثنى خط القتال عليه ، وترك القلعة التي كنا نحاول الاستيلاء عليها بغارة اليوم . وفي الحال ضممناها ، بل وتركناها لمسافة أربعمئة ياردة وراء قواتنـــا . وقد فاجأنا العدو بهجوم اليوم ، ولكنه لا زال يقاوم مقاومة مستميتة ، ونحن نقدر عدد قواته بحوالي ١٨٠٠ رجل . وها هي ترتد أمامنا رغم كل محاولات الاستماتة. أما مدفعية الأتراك فمرتبكة جداً ولا تعرف أين توجه قنابلها . وقد دأبت على قصف مقبرة القره مانلي رغم ان قواتنا قد تركتها . ان جو القتال حام شديد تطير فيه شظايا القنابل إلى كل بقعـــة ، وتنقصف جذوع النخيل،وهي ترمي الحيطان وتصفر في الهواء من حولنا، لكن رجال خطوطنا الأمامية يقومون بتحقيق المعجزات رغم انهم يدخلون القتال لأول مرة في حياتهم . انهم يتقدمون كما يتقدم اليابانيون ويحفرون الخنادق رغماً عن رصاص الأعداء .

وانتهت المعركة في غروب الشمس . وفي فجر اليوم التالي ظهرت مناطيدنا وحلقت في الجو على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ثم توجهت نحو البحر . أما رجالنا فإنهم يستريحون ويتمتعون بالهدوء الآن ، ولكننا لا زلنا نسمع بعض طلقات البنادق الرشاشة هنا وهناك يطلقها عدونا وهو منهزم في مناطق الهاني وسيدي المصري. وتحتل قواتنا وخيولنا ومدفعيتنا المنطقة من هنا حتى طرابلس وتتناقل أخبار النصر من فم إلى آخر حتى نقلته إلى قصر الوالي .

الفصل الخامس عشر

حياتنا في الخنادق

إن التجول بين مواقعنا يعد أجمل شيء في العالم اليوم ، لأن خطوطنا حول طرابلس تمتد من القبة حتى المسجد ، ومن المسجد إلى قبة أخرى . وهكذا أصبح عظماء المسلمين بين مراكزنا !

ولا زالت المدفعية والبنادق التركية تسلط نيرانها على سيدي المصري بكل ما لديها من قوة .

إننا لا نرد على تحرشات العدو ونيرانه إلا إذا كانت قوية. وتأتينا رصاصات بنادقه تصفر في الهواء، لكنها ترتمي وتختفي في الهواء بينما نستمر نحن نتحدث ولا نأبه بهـــا . بل ان بعضنا وجد الوقت للاستراحة وكتابة الرسائل إلى عائلاتهم . وقد قال لي أحدهم « لقد أخبرت أمي انني أعمل في الإدارة وأكتب الرسائل بالمكاتب بعيداً عن ميدان القتال لأني لم أر سبباً أزعج به المسكينة . انها تتصور انني أعرض نفسي للمخاطر والمشاق ! » ثم قال لي: ان الأمور ليست بتلك الصررة من المتاعب لأنه لم ير أياً من رفاقه وقادته يموتون ، في معركتنا الحالية !

وقد لاحظنا ان الأتراك يترصدون بكل من يقترب من بقعة معينة في نهاية طريق بجانبنا ، فما أن يقترب أحدنا منها حتى يطلقوا عليه النار في الحــال . فقام رجالي بصنع خيال وألبسوه قبعة أحد الجنود وبدأوا يحركونه ويتمتعون

بما يحدث . وعلا ضحكهم لأن الأتراك يمطرونه بالرصاص ولأن الخيال ينحني كلما أصابته رصاصة وكأنه يقول « شكراً ». لقد كان نهار الأمس نهاراً حاراً، ولكني تجولت والتقيت بأحد الجنود يحمل ليمونة ، وسألته من أين حصل عليها فابتسم ، وكان يريد أن يعطيني جواباً ولكنـه وقع على الأرض لأن رصاصـة أصابته في ذراعه الأيمن وسكنت في قلبه . وهـــل تعتقد ان الحادثة أثرت في رجالنا ؟ بالعكس لم يتحركوا أبداً ، وكأنها لم تحدث . وكل ما فعلوه هو تحويل الجثة وأخذ الساعة وما مع القتيل حتى يرسلوه إلى والدته للذكرى في سيسيليا، ثم حفروا قبراً ودفنوا فيه رفيقهم وواروه التراب ، وقال أحدهم : « مسكين بول ، لقـــد لاقى حتفه اليوم ، وسألقى حتفي غداً » ثم غادروا جميعاً إلى مراكزهم . ان العدو بعيد عنهم ولكن الموت يأتي ، ومتى أتى لا يثير الفزع ، وهكذا يموت الجنود الإيطاليون .

الفصل السادس عشر

الكوليرا والفيضان

لقد انتهت معركة يوم ٥ نوفمبر واستولينا على الحميدية ، وقررت قيادتنا لنا ان نتقدم حتى نحتل الهاني وقلعة سيدي المصري وننظف المنطقة من العدو حتى تاجوراء . ولكن الأمطار لم تتوقف من يوم ١٢ إلى ١٩ . كانت تسقط بغزارة فأجبرتنا على تأخير تنفيذ خطتنا ، لأن التحرك أصبح من المستحيل . وبالاضافة إلى هطول الأمطار ظهرت الكوليرا وقضت على عدة أشخاص هنـــا وهناك . وبدأت تنتشر بسرعة في خلال شهر نوفمبر . كان تلويث الأتراك للآبار الواقعة حول قلعة الحميدية برمي الجثث فيها أحد الأسباب الرئيسية التي نشرت هذا الوباء . ولم تعرف أوروبا أي شيء عن وجوده بيننـــا ، لأن الرقابة العسكرية منعت بكل الطرق تسرب أخباره خشية أن تثير ضجة بين ذوي قواتنـــا في إيطاليا ، ولكني الآن أعلن وأقول ان الكوليرا قد كلفتنا ألف قتيل في خلال شهر واحد فقط .

وعلى أي حال منعتنا الأمطار والكوليرا من تنفيذ هجومنا واضطررنا إلى تأخير الحملة . وقد وجد أصدقاء تركيا فرصة لهم في الصحف وبدأوا يصفون إيطاليا بعدم القدرة العسكرية والجبن ، ولكن رجالنا كانوا آنذاك في حـــالة حرب أيضاً لأنهم كانوا يكافحون الكوليرا ويحصنون مواقعهم ضد السيول الجارفة التي هدمتها كما يطهرون منطقة تاجوراء من الأعداء .

وقد استعملنا في تطهير تاجوراء الطائرات والمناطيد ، فطارت على مواقع العدو وأشارت لها حتى تركز عليها المدفعية . وقصفنا منطقتي القرى الواقعة حول الهاني وأم الروس قصفاً قوياً حتى فر سكانها الى نواحي تاجوراء .

لقد فاجأنا السيلُ وزحف على مواقعنا في بوملميانه وسيدي المصري كالعدو الغائر ، فلم يعطنا أية فرصة أو تحذير . لقد تسلل نحونا في الظلام وكأنه يعمل ما في قوته لكي يطوقنا ويفصلنا عن بعضنا البعض .

ومن الغريب أن الإنذارات التي وصلتنا ضد خطر السيول جاءت من خطوطنا الأمامية التي دائماً تنذرنا بغارات الأتراك ، وسمعنا صراخ هذه الخطوط ونداءاتها واستطعنا أن ننقذ مئات من جنودنا . وقد جاءت السيول من وادي المجنين الذي لم نعرف عنه شيئاً حتى وصول مياهه إلينا وطبع غارتها في مخيلتنا بعد أن تحاملت السيول فيه من الأمطار التي كانت تهطل وتحركت ضدنا في غارة عنيفة ليلة ١٦ نوفمبر .

كانت الليلة ظلماء حالكة والمطر لا ينقطع والرياح عاتية تتصادم مع جذوع النخيل فتعوي وتهش سعفها . انها ليلة لا تنسى ولا تعرف أوروبا لها مثيلاً . أما في هذه البلاد فكل شيء يحدث في درجة التطرف إما هدوء أو عاصفة ، إما جفاف قاتل أو سيول .

وفجأة بدأنا نسمع صراخاً متقطعاً لأن الرياح تعوق وصوله إلينا ، وكان الصراخ صراخ قوات خطوطنا الأمامية لأنها اعتقدت ان الأتراك كانوا زاحفين في إحدى غاراتهم وأرادت أن تنبه بعضها للخطر . ولكن مياه الأمطار ارتطمت بوجوههم وعصفت الرياح وتسلل الماء إلى خنادقهم . وتعالت صيحات الإنذار « النجدة ! انتبهوا فالسيل يجرفنا » ولم يعرف أحد ان الماء قد غمر المنطقة كلها لأن الليل كان مظلماً جداً .

وكنت ممتداً على كومة من التبن في كامل لباسي العسكري وبجانبي سلاحي عندما سمعت صرخات الإنذار فقفزت من مكاني وصرخت في رجالي «إلى هنا... إلى هنا... إلى الوراء هيا بسرعة» وتبعني الرجال الذين بقوا في مراكزهم حتى سمعوا أوامري .

وتساءلت «هل أنتم جميعاً هنا ؟ – وهل فقدنا أي شخص ؟» لقد كان من المستحيل أن أتعرف على رفاقي فبدأوا ينادون على بعضهم البعض بالأسماء . أما رجال الحراسة والخطوط الأمامية فقد تركز عليهم السيل ولم يعبأ بمبدأ صمودهم العسكري .

وقد باغتت السيول بعض فرق المراكز الأمامية وهم نيام في خنادقهم وارتفع مستوى علو الماء وبدأوا ينادون طالبين النجدة والخلاص . وقفز الملازم فيتريلي في المـــاء وبدأ يسبح متجهاً إلى حيث الأصوات التي تطلب المساعدة . ولما وصل غاص تحت الماء الموحل في الخندق وفرق الأغطية الخشبية بسكينه وأنقذ رجالنا من الموت . وكانت المياه تزداد بشكل سريع إذ ما إن انقضت عشر دقائق من الزمن حتى اختفى المعسكر كله .

ولكن لا زال أمامنا رجال مواقع حراسة أخرى يحتاجون إلى الانقاذ ، فارتمى فيتريلي وأنا وجاويشان في الماء وسبحنا إلى هذه المواقع . ووجدنا رجالها قد تسلقوا اعمدة الأسلاك الشائكة ، فصرخت فيهم «الجرأة يا رجال» فردوا «لا نعرف السباحة» فقلت : «هل تستطيعون البقاء حيث أنتم ؟» فقالوا : «نعم طالما أن الماء لم يزد إلى هذا العلو». فطلبت منهم أن يبقوا حيث هم حتى نعود إليهم . وفي الساعة الثانية صباحاً بدأ ما يشبه الزوارق التي تم صنعها من الأعمدة تصل المنطقة التي بها هؤلاء الجنود الذين كاد البرد أن ينتزع أرواحهم .

ورأينا المنظر كاملاً بعد أن بدأ النهـــار وانتشر ضوء يوم عاصف ممطر . واكتشفنا أن نهراً قوياً تندفع مياهه مسرعة محملة بالطين لشق الصحراء وكأن

معجزة ما قـد فجرته فجأة ، وتدريجياً بدأت جوانبه تفيض وتبتلع المزارع والطرق والممرات وتتجه نحو طرابلس والبحر . وقد كان في إمكاننا أن نتصل بسوق الخبز بالزوارق ، ووضعنا زوارقنـــا تحت تصرف بعض المراسلين الذين يغطون أخبار القتال لصحفهم وأعطيناهم زورقاً لكي ينقلهم إلى مطعم إيطالي ممتاز حديث لتناول الطعام .

وقد أبدع رجال سلاح الهندسة في الأعمال التي قاموا بها في هذه الطوارىء رغم حدوث كل شيء بشكل مباغت ، ولم يحصل أي ارتباك في أعمالهم وأدوا واجبهم : من عقيدهم حتى آخر جندي على ما يرام .

إن وادي المجنين ليس نهراً مستديماً ، انه وادٍ يثور متى نزلت أمطار غزيرة ويموت متى توقفت هذه الأمطار وسيولها . ويختلف حجمه واتجاهه من منطقة إلى أخرى ومن موسم إلى آخر . فبعض الأحيان يجري بضعف وأحياناً أخرى يندفع بجبروت ، ويبلغ طوله حوالي ٣٠ ميلاً .. وتأتي مياهه من ترهونة وتصب في البحر بمنطقة قرقارش .

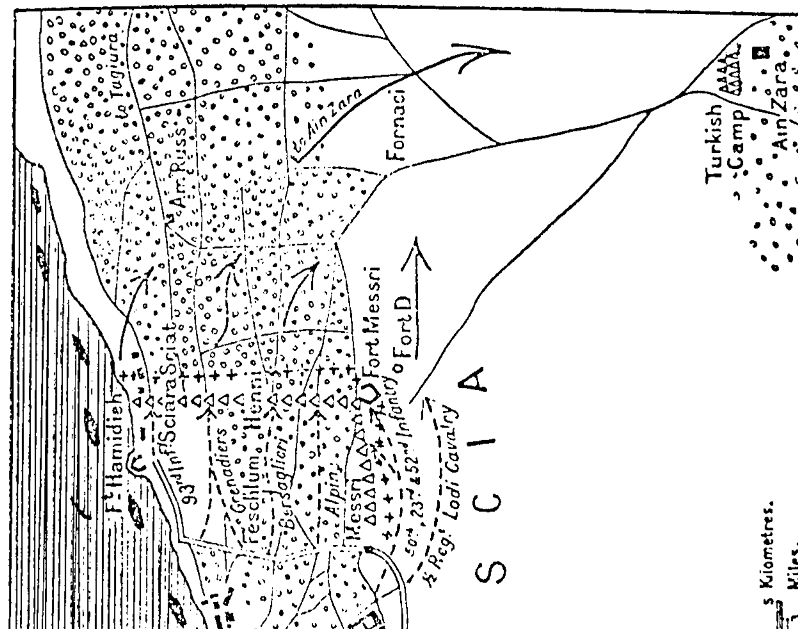
وقد عرف الرومان وادي المجنين ودرسوه دراسة كاملة ونجحوا في ترويض قوته عن طريق بناء بحيرات لخزن مياهه في ترهونة وهضابها ، ولا زالت آثار تلك البحيرات باقية حتى هذا الزمان . ولقد استعمل الرومان هذه البحيرات في ري المناطق الزراعية في أوقات الجفاف . ولكن حكم العرب والأتراك أهمل هذا الوادي وجعله رهن الأقدار الطبيعية وها هو يتسبب في الكوارث بسيوله ، وستكون دراسته من المواضيع التي تهمّ الحكومة الايطالية .

الفصل السابع عشر

معركة الهاني

توقفت تحرشات العرب وهجوماتهم علينا التي اعتدنا عليها في خلال الشهر الماضي ودربت جنودنا على مكافحة حرب العصابات منذ ان بدأت ايطاليا طور الهجوم يوم ٢٦ نوفمبر . وتوضح الخريطة المرسومة هنا مواقع ومراكز الجيشين قبل بدء المعركة الأخيرة التي خضناها . وقد كانت خطوطنا تكون حدوة حصان ممتدة من الحميدية وتمر بمقبرة القره مانلي وفشلوم إلى سيدي المصري . أما الأتراك فقد كانت مراكزهم موازية لمراكزنا لمسافة ميل ، ومن ورائها شارع الشط والهاني وسيدي المصري . وقرر الجنرال كانيفا الهجوم على الأتراك في هذه الأماكن بعد أن تأكد من سلامة مواقعنا الغربية والجنوبية بناءً على المعلومات والاستخبارات التي جاء بها الطيران . وأنيطت مسؤولية احتلال قلعة سيدي المصري الى الفرقة السادسة بقيادة الجنرال ناسالي روكا . وهي مكونة من المجموعة الثالثة والعشرين والمجموعة الثانية والخمسين من فرق المشاة والفرقه الثانية والخمسين من الفرسان، تعززها المدفعية. أما غزو الهاني فقد كلفت به فرق الالبيني والفرقة الحادية عشرة من رجال البرساليري والفرقتين الحادية عشر والثالثة والتسعين من المشاة على أن تساندها مدفعية الأسطول الثقيلة في تمهيد تقدمها .

وبدأ إطلاق النار في الساعة السادسة والنصف تماماً . واستبشر رجالنا وفرحوا بقدوم المعركة واعربوا عن سرورهم بدخولها ، لأنها ستعطيهم الفرصة



معركة الهاني وسيدي المصري

لملاحقة العدو ومهاجمته ، وانطلقت فرق الناسالي متقدمة من جناحنا الأيمن نحو قلعة سيدي المصري . وكانت الشمس في ذلك الوقت عالية قليلاً والصحراء خامدة، بسبب الأمطار التي نزلت، وسكنت رمالها وبها بحيرات صغيرة مبعثرة في البقاع الواطئة .

ولاحظت مدفعية الأتراك تحركاتنا من قلعة سيدي المصري وكانت قوات مشاتها متمركزة حول ما يسمى بمدرسة الزراعة . وبدأنا ننتظر الالتحام بهم . وصعدت شجرة نخيل حتى أرى كيف كانت المعركة دائرة في جناحنا الأيمن ، وبعد نصف ساعة من الزمن اضطر الأتراك للانسحاب نحو قلعة سيدي المصري التي هي بناء ضخم أحمر اللون ، واستمرت فرق الناسالي في الزحف كما كان مخططاً لها .

وبدأت بنادق قلعة المصري تمطرنا بالرصاص والقنابل ، ولكن قنابلها كانت تنفجر عالياً في الجو ولا تنزل إلا وهي باردة لا فعالية لهـــا . ورأينا علماً أبيض مرفوعاً بين قلعة سيدي المصري ومدرسة الزراعـــة مشيراً إلى وجود مركز إسعاف من مراكزنا، لكن الأتراك يصوبون نحوه مدافعهم لقتل الجرحى.

وتقدم رجال قواتنا نحو قلعة المصري وبدأوا في صب رصاصهم عليهـا من جميع الجهات ، ثم انفصلت فرقة من قواتنا رافعة العلم واندفعت متقدمة لبعض الوقت . ثم تحصنت وراء كثبان رمل ، ثم وقفت من جديد وواصلت تقدمها حتى أصبحت تحت قلعـة المصري بالضبط . واختلط الإيطاليون بالعرب في قتال بالسلاح الأبيض واختلطت القبّعات بالجرود .

وقد غضب رجالي أشد الغضب لأنهم لم يكونوا في حمى المعركة وصاحوا لما رأوا زملاءهم في ذلك القتال«هيا انحروا يا رجال!».وكنا نسمع تصادم البنادق وحرابها متواصلاً سريعاً . وبعد عشر دقائق رأينا العلم الإيطالي يرفع في ميدان المعركة والجبناء هاربين فارين نحو الهاني

ان الساعة الآن التاسعة صباحاً ، وتقـدم العقيد الذي هو مكلف بقيادتنـا للاستيلاء على الهاني وقال : « والآن جاء دورنا » بعد أن سمع بانتصار جناحنا الأيمن . وأعلن ان « جبهتنا ستبدأ الهجوم على الهاني في الساعة التاسعة والثلث تساعدها الفرقتان الثالثة عشرة والثالثة والعشرون من ناحية اليسار ، وفرق الالبيين من ناحية اليمين » ثم ركب فرسه وتجول بين المراكز لإعطاء تعليمات موجزة لزملائه ورفاقه في القيادة . وفي كل مرة ذكـّرهم قائلاً : « يا رجـــال البيرزاليبري ، لا تنسوا المدالية » فأجابوه بصيحات التأكيد ولوحوا بقبعاتهم في الهواء .

إن هؤلاء الرجال تملكهم سعادة لا حدود لها وهم ينتظرون بفارغ الصبر دخول ميدان المعركة ، وهم بكل بساطة يتبادلون النكات .

وفي تمام التاسعة والثلث خرجنا من مراكزنا صفوفاً صفوفاً وبدأنا زحفنا نحو الواحة وبدأنا نطلق الرصاص . ثم انتشر رجالنا في المنطقة بين أشجار النخيل راكضين من منخفض إلى منخفض ومن حائط إلى حـــائط ومن شجرة إلى أخرى . ولم يعد للنكتة مجال الآن لأن الجد حل محلهـا ولم نسمع إلا عبارات خاطفة مهموسة .

وبعد أن تقدمنا نحن جاءت فرق الاحتياط التي كانت مرابطة في المؤخرة واحتلت المواقع والمراكز التي تركناها ، كما بدأت فرق بغالها التي تجر المدافع والأسلحة والعربات في التحرك معها . أما قواتنا الغائرة فقد كانت تسير متصلة الأركان وخطها كله يتقدم بنمط واحد على طول الجبهة رغم العقبات . وسار الخمسة عشر ألف كموجة واحدة .

وبدأت الأوامر والمعلومات تنقل من قيادة الى أخرى ، وتوقف الصف كله عندمـــا اشتبكت إحدى الوحدات بالعدو . وانتظرنا حتى انتهى الاشتباك لنواصل التحرك الى الامام كرجل واحد . ودخلنا المنازل التي في طريقنا بدون

كلمة إنذار سابقة وتسلقنا الحيطان ونزلنا في ساحات المنازل وفتشنا كل شبر وزاوية ونزعنا أغطية الآبار لأن العرب فنانون في الاختفاء بها .

وقد أطلقت النار علينا عندما أصبحنا على بعد ثلاثمئة ياردة من خنادقنا .. ولكن المقاومة لم تشتد ، لأن تحركنا فاجأ العدو الذي لا يجرؤ على الوقوف أمامنا إلا متى كان مختفياً وبعيداً من الأنظار . وجاءت طلقات نارية من بعض الأماكن ثم انسحب العدو . ورأينا على بعد مئة ياردة منا خمسة عشر عربياً .. وتبادلنا معهم اطلاق النار واسقطنا ستة منهم .

وتقدمنا لمسافة مئة ياردة، ورأينا عربياً وراء حائط ينظر من أحد الثقوب فأرسلنا له رصاصة في العين وأرسلنا روحه إلى الله . وسرنا لمئتي خطوة أخرى لأن الأشجار غير كثيفة هنا .

اننا نعرف ان المنازل التي اتخذ منها العرب مخازناً للأسلحة والذخيرة تحمل علامة مثلث . ويستعمل العرب هذه المنازل كملجأ عندما يبدأ القتال ويتحصنون بها ويستميتون في المقاومة .لذا أحضرنا معنا مدفعاً ثقيلاً ليتولى مهمة القضاء على هذه الحصون. وما ان قصف أحدها وحوله إلى ركام وانقشع دخانه حتى تقدم رجالنا وأفنوا من تبقى به من الأحياء .

ويحتل رجال المدفعية الخطوط الأمامية في الجبهة . والعرب يخافون المدافع ويهربون منها . أما رجال المفرقعات فقد فاجأوا مجموعة من العرب يقودهـــا ضابط تركي كان مختفياً في احد المساجد . وقاومت هذه المجموعة بعض الوقت وفرضت علينا نسف المكان كله ولم ينج إلا بعض من رجالها .

أما رجال الفرقة الثانية والتسعين الذين كانوا زاحفين من الحميدية الى شارع الشط والهاني فقد اضطروا لنسف كل منزل جاء في طريق تقدمهم . واكتشفوا اكواماً من القتلى العرب الذين اصابتهم قنابل مدافعنا . وثار هؤلاء الرجال أشد

ثورة لانهم وجـــدوا العرب يلبسون ملابس الجنود الايطاليين الذين وقعوا في الميدان في معركة يوم ٢٣ نوفمبر واعتبروا لبس العرب للزي العسكري الايطالي عملية تدنيس وتلويث لايطاليا وعزموا على مطاردة العدو اينما كان .

وما زلنا نتقدم في كل هذا الوقت نحو الهاني الذي لاح لنا أنه جُبيل اصفر على طرف الافق الآن محاط باشجار النخيل . وهنا بدأت المقاومة ضدنا مقاومة عنيفة . لأن الجنود الاتراك متمركزون على بعد حوالي ثلاثمئة ياردة منا، ولكننا تقدمنا .

وجاءت المدفعية لتقصف المناطق التي أمامنا . ولكن قنابل الأتراك بدأت في الانفجار بيننا ، ولم تلحق بنا أي إصابة حتى الآن باستثناء جرح جنديين . وأخيراً أجبرنا العدو على الانسحاب الى خطوطه في المؤخرة القريبة من الجبيل. وفي تمام الساعة الثانية عشرة بالضبط وصلت فرقتي الخط المعين للقوات للتوقف فيه عند النصف حتى تعيد التجمع والتخطيط للاقبال على آخر مرحلـــة من مراحل الاستيلاء على المرتفع الذي وضع الاتراك فيه كل ثقلهـــم كآخر معقل لهم .

وانتظرنا تجمع القوات الأخرى التي كان بعضها في المعارك الدائرة على طرفي خطنا . وبدأ رجالنا في الاستراحة بينما اجتمعنا عند الضباط لتناول طعـــام الغذاء واقتسامه مع مراسلي الصحف الذين نسوا ان يأتوا بطعامهم ذلـــك اليوم . وسمعنا لعلعة البنادق الرشاشة آتية من بعيد من مكان مـــا كأي اصوات حشد ضخم .

وتم الاحتشاد كله في الساعة الثانية بعد الظهر بوصول فرق المفرقعات وبدأنا الزحف ثانية ، وانطلق الرصاص على فرقتي من خنادق موازية لتقدمها . وبدأ القتال بينها وبين الأتراك . فتحصنت بحائط وصبت رصاصها عليهم ولكنها لم تفلح في زعزعتهم من أماكنهم. ومضى الوقت.. وجاءتنا الأخبار تقول ان الفرق

الأخرى قد تقدمت نحو الهاني وأصبح الاستيلاء على مواقع الاتراك التي تعارضنا هدفنا الاول .

وفي الساعة الثالثة والنصف صحت في رجـالي « هيـا اطلقوا طلقة رجـل واحد » وتجاوبوا معي ، واندفعنا معاً على خنادق العدو صارخين منذرين . وتحولت الواحة إلى حشد من رجال البيرزالييري المتقدمين في فخر وانتصار .

وقد نشر صراخنا ورصاصنا الرعب في قلب العدو فأطلق علينا النار مرات متقطعة ، ثم أطلق للساق العنان. فاحتل رجالنا الخنادق ورفعوا الراية الإيطالية ترفرف بألوانها ، واندفعوا للاحتماء بها ووجوههم حمراء يتقاطر منها العرق . ولكنني صحت « هيا املأوا الاكياس بالرمل وأعدوا التحصينات » وركزوا بنادقهم ، وأجابوني « دع الشحاذين يأتون إلينا وسنعرف كيف نعاملهم !! »

وبعد فترة من الوقت وصلت الفرق الاخرى مراكزها حول الهاني وزحف رجالها وهم ينادون « الهاني ، الهاني » ، ولكن الهاني لا يجيب نداء . وتقدموا هم نحوه ، وانضمت فرقتان من رجال البيرزالييري وفرقة من الالبيني وفرقة من رجال المفرقعات على القلعة . وحذرنا نحن الضباط هذه الفرقة لتكون على حذر تام من أي مباغتات .

وكان العدو ، من حسن حظه ، قد فلت من القلعة عندما اندفعت نحوها قواتنا لاحتلالها وهم يهتفون « تعيش إيطاليا » . ودخلوها . وسيطرت عليهم البهجة بعض دقائق ثم بدأوا في العمل الجدي لحفر الخنادق وبنـــاء التحصينات ، وانسحب عدونا إلى عين زارة التي تبعد ثمانية أميال عن طرابلس المدينة .

وقد كان الجنرال كانيفا في الميدان طوال الوقت . ولما انتهى احتلال المنطقة زارنا وهنأنا ضباطاً وجنوداً ، كما سأل الجنود فيما إذا كانوا مرهقين . وردوا جميعاً بكلمة « لا » رغم انهم كانوا فعلاً في حالة تعب . ولكن الخجل فرض الجواب عليهم . وسيحرس نفس هؤلاء الرجال الخنادق الليلية وهم لا يمتلكون

غطاء أو يذوقون طعاماً، ليردوا هجمات العدو وتكتيكه الذي يتبع : اضرب واهرب . ان العرب والاتراك غير قادرين على مواجهتنـا وجهاً لوجه لأنهم يعرفون قوتنا .

وبعد القتال انهمكنا في بناء التحصينات وإعداد الخنادق ونصب المدافع الرشاشة على كل مكان . ومر الرصاص بعض الاحيـان فوق رؤوسنا ولكنه لم يؤثر فينا ولم نحسبه إلا كالمطر ، بل لم يمنعنا من الاستمرار في أعمالنـا . وقد جاء هذا الرصاص من العرب الذين يقودهم الاتراك بعد أن استطاعوا الاختفاء في الواحة بعيداً عن أنظارنا عندما أخذتنا نشوة النصر .

وأخذنا مجموعة تـلو مجموعة من العرب وفرضنـا عليهم حفر القبور للقتلى أو حرقهم . وانتشر دخان بين أشجار النخيل يشير إلى الجنازات الكئيبة. وقد وجدنا ان جثث الاتراك تصل نسبة ٢٠ ٪ بين القتلى من العدو ، وهذا يدل على ان العرب يعملون تحت قيـادة أومباشية أتراك يقومون مقـام الضباط . ونحن نقدر ان خسارة الاعداء وصلت ١٥٠٠ قتيل ، أما خسائرنا فقد بلغت ٥٤ قتيـلاً من الجنود و ٣ ضبـاط و ٩٢ جريحاً من الجنود وخمسة ضباط .

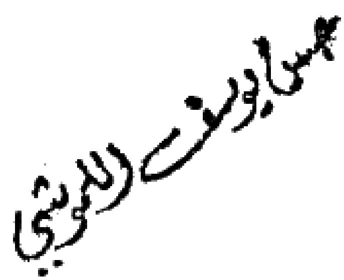
ان من الصعب تقدير خسارة العدو بكل دقة ، لأنه لا يترك جثث قتلاه إلا في الحالات التي لا يستطيع حملها فيها . ويجب الاعتراف ان رجال عدونا يقدمون على اعمال بطولة لا أنانية فيها عندما يستميتون في رفع زملائهم الذين وقعوا في الميدان ، فنحن نرى الواحد منهم يرتمي على الرصاص في سبيل العودة إلى رفيقه ورفعه على ظهره والفرار به . وقد قابلنا نحن هذه المحاولات بحالات هدنة مؤقتة .

ولا زلت أتذكر أن عربياً غير مسلح تقدم نحو خطوطنا رافعاً يديه حتى وصل جثة زميله فارتمى عليها وخطفها وجرى بها. وقد كان القتيل تركياً ولعله أحد الضباط. وهذه عادة منتشرة في الشرق كله، لأن الجنود يخشون أن يلحق

العدو بجثث رفاقهم التشويه والتمثيل كما يفعلون هم . ان حقدهم لا يوصف ويتخيلون ان العالم حقود مثلهم .

وقد عثرنا في عدة أمكنة من المناطق التي كان الأتراك يحتلونها بين شارع الشط والحميدية على بعض جثث الجنود الإيطاليين الذين قتلوا في قتال يوم ٢٣ اكتوبر. لقد مثل العرب بهذه الجثث وفصلوا رؤوسها ومزقوا وجوهها وفقأوا عيونها وفلقوا شفاهها وشرموا أنوفها وقطعوا أيديها وأقدامها .. ويصعب على المرء أن يصف الحالة التي هي بها .

لقد هزت حالات التمثيل هذه قلوبنا جميعاً وملأتها غضباً ، ومنع رجالنا حفارة القبور العرب من الاقتراب من هذه الجثث وأصروا على دفنها بأنفسهم في صمت وسكون ، وشعر كل منهم بضرورة حمل السلاح والاندفاع نحو العدو لطرحه أرضاً ميتاً في التو والحين . ورأيت على شفاههم كلمة « الانتقـــام ، الانتقام » تتردد .



الفصل الثامن عشر

الشنائع العربية التركية

يجب الا يشك القارىء في الحقائق التي سنذكرها له لأنهـــا وردت في مذكرات الميجر ب. م . ورآها المراسلان الصحفيان كاستون ليروكس وبينيت بيرلاي بأعينهم .

ان المسيو ليروكس كاتب روائي مشهور وجاء كمراسل لجريدة ماتن الفرنسية وبعث بالبرقية التالية إلى صحيفته يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩١١ :

لقد كنت حاضراً دفن بعض القتلى الإيطاليين الذين وقعوا في ميدان المعركة يوم ٢٣ أكتوبر ليس فقط كأبطال بل كشهداء ، ولا أستطيع ان أجد الكلمات للتعبير عما ارتكبه ضدهم العرب . وقد اكتشفنا هذه الجثث في إحدى المزارع بين أشجار العنب .

لقد ارتكب العرب مجزرة داخل مقبرتهم بالهاني ضد الإيطاليين ، وإنني أعتقد ان نصف الجثث من الثمانين جثة التي عثر عليها الإيطاليون كانت أحيـاء عندما استولى عليهم العرب وقادوهـم الى وراء الحيطان بعيـداً عن الرقابـة الإيطالية وجزورهم .

لقد قطعت أقدام الجثث وفصلت أيديها عن أجسامها ، وخرق فم احداها من الفم حتى الأذن ونزعت أظافر أخرى ونزعت عيونها . ولا يشعر المرء إلا

بالأسى والغضب عندما يعرف أن هذه الجثث كانت تتقاسم طعامها مع العرب .

وقد رأيت عدداً من الجثث في هذه المزرعة وقد بنى عليها العنكبوت شبكاته وتطير الحشرات حولها ، وانه من حسن حظ الإنسانية أن تكون المدفعية الإيطالية الآن تطلق قنابلها احتفاءً بالنصر . وسوف لن أنسى ما رأيت مدى حياتي » .

أما المستر بيرلاي مراسل جريدة الدايلي تلغراف البريطانية بطرابلس فقد كتب ما يلي :

« لقد جئت الى قرب مسجد الهاني حيث رأيت جثث من وقعوا قتلى على أيدي حقيري الصحراء . وقد شاهدت ان خمسة من رجال البيرزالييري قد قتلوا صلباً ثم أطلق الرصاص على جثثهم كما تدل الآثار الباقية عليهم . وانه من غير المفيد أن نستمر في وصف ما ارتكبه هؤلاء الغجر المسلمون ضد أبناء المسيحية . لقد صلب العرب جاويشاً ولا زالت المسامير في يديه وساقيه .

وقد هاجم العرب مستشفى ميدان قريباً من الهاني وقتلوا المجروحين والأطباء والممرضين وشنعوا بهم ومزقوا وجوههم وضلوعهم وعبّأوا أجوافهم بالحشو . وان أبشع عمل قام به العرب هو قتل السنيور ليبيلو الذي يعمل في الصليب الأحمر إذ صلبوه ثم ثقبوا حاجبي عينيه وغرزوهما بالخيوط ثم شدّوا الخيوط إلى ما وراء الرأس وبقيت العينان مفتوحتين وتطايرت حولها الحشرات والذباب » .

هذا ما كتبه المستر بيرلاي،وهو حقائق لا خلاف فيها تُدين رجال الصحافة السخيفة وتوقفهم في موقف مخجل شائن معيب . وقد بعث مراسلون آخرون أوصافاً مماثلة إلى صحف بلادهم عن الأعمال التي يرتكبها الأتراك .

لقد كان المسيو جين كاريري مراسل جريدة تمبس الفرنسية عائداً إلى بيته

ليلة ١ ديسمبر سنة ١٩١١ بعد أن أرسل برقية إلى فرنسا تصف مـا يرتكبه الأتراك وهجم عليه شخص بخنجر وهو يكاد يدخل بيته ، ومن حسن الحظ أن الجرح لم يكن قاتلاً ، وأخبرنا بعد علاجه ان الذي هجم عليه كان تركياً .

ان الهجوم على المسيو كاريري يعـد أمراً عادياً لأن الأتراك يرمون بجام غضبهم على مراسلي الصحف الفرنسية الأبطال لأنهم يذكرون الحقيقة للصحف الأوروبية ، واني أتخذ من أمثال هذا الرجل حجة ضـد الصحافة الصفراء وكتابها .

انني أضع كل إشارات الخزي والعار على هؤلاء الكتاب لأنهم يدافعون عن الأتراك الذين يؤجرون القتـلة ، ويشجعون العرب على ارتكاب الخيانـة ، ويشتركون في التمثيل بالقتلى من الايطاليين ، ويطلقون النار على رجـال الصليب الأحمر .

دع البريطانيين يعرفون ان الاتراك يقتلون جرحانا ولكننا نعامل الأسرى منهم معاملة الكرم ونضع العشرات منهم في مستشفياتنـا بطرابلس للعلاج والدواء ، وقد وضعنا مئات الأسرى منهم في معسكرات بإيطاليا يحرسهـا الجيش ، ولكنهم يعيشون على نفقـة الحكومة الايطالية ، ويتمتعون بحرية جزئية ، ونتركهم يستحمون بالبحر ويتجولون ويتراسلون مع عائلاتهم .

بل اننا نقدم معاملة أحسن من هذه المعاملة للضباط منهم ونتركهم يستلمون مرتباتهم من قيادة تركيا، ونحترم شعائرهم الدينية ،وأنزلنا بسببهم الصلبان التي كانت معلقة بالأماكن التي يقيمون بها ، وحولنا مكاناً منها إلى شبه مسجد لهم. وندعهم يصلون ويعبُدون في هدوء. ويعامل الضباط والجنود الإيطاليون هؤلاء الضباط معاملة لطيفة وبنوا معهم علاقات صداقة ويزورونهم. وليعرف القارىء البريطاني كل هذه الحقائق ، بل ليعرف عشاق تركيا هذه الحقائق لأنهم هم الذين

أبرقوا بالأخبار الكاذبة ونشروا الكتب التي تزور الحقائق ووسّخوا شرف إيطاليا .

وقد اشترك الأتراك في قتل وتشويه الإيطاليين لأن العقيد فارا بنفسه وجد تركيين يرتديان الملابس الايطالية ،وهذا دليل على انهم يشاركون العرب أفعالهم. ويجب أن نوضح إلى العـــالم المتمدن مسؤولية تركيا حتى تتحمل الامبراطورية العثمانية نتائج أفعالها المشينة . وليعرف العـــالم أجمع أن الغجر لا يعرفون من العسكرية الا زيها،ولتقف الشهرة التي تُمنح لهؤلاء البرابرة بين دول العالم كأبطال محاربين .

وقد أصر الجنرال كانيفا على تصوير جثث القتال حتى يبرهن على التشويه الذي لحق بهم أمام مراسلي الصحف الأجنبية ، وأرسل هذه الصور مع تقريره إلى القيادة الإيطالية بعد معركة الهاني. ويقول التقرير ان العرب والأتراك ارتكبوا ما يلي :

١ — قتلوا الجرحى ومثلوا بهم .

٢ — هاجموا وقتلوا رجال الوحدات الطبية .

٣ — استعملوا رصاص التشويه « الدم دم » .

إن هذه الأعمال لا تعد تشويهاً للعالم المتمدن فقط ، بل هي مخالفات صريحة للمواد : ١ ، ٣ ، ٩ من اتفاقيات جنيف الموقعة في ٦ يوليو سنة ١٩٠٦ . وتقول المادة الأولى من هذه الاتفاقيات :

« يعامل الجنود والضباط وكل من لهم علاقة بالجيش معاملة الاحترام وتقدم إلى الجرحى منهم العناية بغضّ النظر عن جنسياتهم، متى وقعوا في يد العدو . إن اضطر العدو ترك الجرحى والمرضى فيجب أن يترك معهم وحـــدة طبية للاعتناء بهم » .

وتقول المادة ٣ :

« يجب أن يبحث الجيش الذي يبقى بميدان المعركة عن الجرحى والقتلى ويتخذ في سبيلهم كل الخطوات الضرورية لحمايتهم من السلب والمعاملة القاسية » .

والمادة التاسعة تنص عن معاملة رجال الخدمات الطبية :

«يجب احترام كل من له صلة بالوحدات الطبية بما في ذلك القساوسة الملحقون بالجيش وإعطائهم الحماية الكاملة . وان وقع أي منهم في يد العدو فلا يعد من أسرى الحرب » .

وقد منع مؤتمر السلم المعقود في لاهاي يوم ٢٩ يوليو سنة ١٨٩٩ استعمال رصاص الدم دم ووقعت تركيا وإيطاليا على هذا الاتفاق . ويقول هذا الاتفاق :

« يتعهد الأطراف الموقعة على هذا الاتفاق انهم سوف لن يستعملوا الرصاص الذي يتمدد داخل جسم الإنسان » .

وقد امتنعت الحكومة الايطالية عن نشر التقرير الذي وصلها من الجنرال كانيفا عن الأعمال التي ارتكبت ضدنا تقديراً لشعور أُسر الذين وقعوا ضحية التشنيع الذي عقب معركة ٢٣ أكتوبر .

ان إحجام الحكومة والصحف الايطالية عن نشر هذه الحقائق لا يمنع من أن نعلنها للعالم الحيادي حتى يعرف كيف جرد الجيش العربي التركي نفسه من الشرف . وقد جمعت الحكومة الايطالية الصور ومقتطفات من التقرير لنشرها في كتب حتى يعرف العالم الانساني هذه الجرائم .

ان من مصلحة العالم المتحضر ان يعرف شراسة العدو التي تحاربه ايطاليا ، وان يفهم ان الخطب المنمقة التركية سوف لن تصفي ذمة تركيا من الأعمال التي

ترتكب ضدنا ، وان إيطاليا التي قاست الكثير من هذه الأعمال تلعن القتلة في العالم وتصر على الانتقام لشهداء عالم الحضارة . نعم ان الايطاليين الآن يشعرون ان حربنا الحالية ليست حرباً للاستيلاء فقط ، بل هي حرب لنشر الحضارة والمدنية أيضاً . ومنذ أن اكتشف الايطاليون الشنائع التي ارتكبت ضدهم عرفوا انهم رسلٌ للحضارة العالمية يقاتلون ويهزمون لا العرب فقط بل هؤلاء الآسيويين الذين هم متصلون بأوروبا لمدة خمسة قرون ولكنهم لا زالوا يعيشون حياة البربرية !

الفصل التاسع عشر

معركة عين زارة

بدأت نتائج انتصارنا في الهاني تظهر الآن، إذ تقهقر العدو الى عين زارة التي يفصلها عن طرابلس مضيق رملي عرضه خمسة أميال ، وبدأ أعيان طرابلس وتاجوراء يعلنون ولاءهم لإيطاليا .

اننا نقدر هذا الإعلان والتظاهر به ولكننا نرفض التجاوب معه ، لأن شرفنا وكرامتنا الآن تمتلك قوة ستفرض نفسها في القريب العاجل . اننا نأبى أن نتعامل مع هؤلاء العرب المهزومين ، ونرسلهم إلى حيث مناطقهم وقراهم ونرفض قبول ولائهم ونأمرهم بانتظار المصير الذي سنفرضه عليهم .

ان الأعمال والاستعدادات قائمة على قدم وساق للاعداد للقيام بهجوم حتى نطرد الأتراك من عين زارة ، وجميع قوات الاحتياط الآن مستعدة في الخط الدفاعي الثاني ، وقواتنا التي تصل حديثاً من إيطاليا تتجه إلى معسكراتها حال نزولها من البر ، ونحرك مستشفياتنا الى الجبهة الامامية ، وننقل براميل المياه الى الخطوط الامامية لنكون على أهبة الاستعداد .

ويشعر رجال قواتنا بأن المعركة قادمة لا محالة ، وهم يترقبون بدءها حتى يلتحموا بعدوهم اللدود . ولا شك انهم سيبلون بلاءً حسناً ضد هذا العدو حتى ينتقموا لمعركة الهاني ولزملائهم الشهداء الذين وقعوا بها .

إن اليوم الذي طالما انتظرناه قد جاء وتحدد يوم ٤ ديسمبر لبدء هجومنا على عين زارة، الذي ستنفذه ثلاث فرق كاملة، وأخذنا في الحسبان وادي المجنين الذي فاض قبل اسبوعين فقط ولم يبق منه الآن إلا طين في مجراه، وبعض البحيرات مبعثرة في عدة بقاع. ولا يشق هذا الوادي مواقعنا إلا عندما يقترب من الاندماج في البحر، ويلامس مجراه عين زارة من الناحية الشمالية، ويمر بالقرب من معسكر الاتراك ثم ينحني نحو مواقعنا في اتجاه شمالي غربي.

وقد تقرر أن تتولى فرقتان الهجوم على الطرف الغربي من مواقع العدو في عين زارة تاركة مجرى وادي المجنين على شمالها، أما الفرقة الثالثة فقد كلفت بالهجوم على الطرف الشمالي الغربي حتى تفصله عن الاتصال بطرابلس، على أن يكون وادي المجنين يحاذيها من ناحية اليمين.

وقد كونّا الفرقتين المكلفتين بالهجوم على الطرف الغربي من الوحدات الثانية والثمانين والرابعة والثمانين وقطعة من مدفعية الميدان تحت قيادة الجنرال رايناالدي. أما مركز تقدمها فقد تكون من الوحدة الحادية عشرة من فرق البيرزاليري ووحدتين من فرق المفرقعات التابعة لرجال الالبيني وقطعة مدفعية بقيادة الجنرال ليقنيو بالاضافة الى الفرقتين الاربعين والتسعين من فرق المشاة وفرقة من سلاح الهندسة وقطعة مدفعية بقيادة الجنرال جاردينا.

ووضعنا على طرفنا الأيسر القصي فرقتين وأمرناهما بالاستعداد للزحف على سيدي المصري ومسجد ابو سعد الذي يبعد عن الواحة حوالي ميل واحد وبالسيطرة مع فريق الى جنوب عين زارة الشرقي.. لأننا توقعنا ان يستعمل الاتراك هذا الطريق في انسحاباتهم.

حل يوم ٤ ديسمبر وخرج الجنرال جاردينا وقواته، ثم تبعته قوات الوسط، وأشرف أحد الضباط على مرور القوات. وكانت فرقتي من الفرق التي في مقدمة الزحف. ومررنا بمجموعة من الصحفيين وسأل بعض الصحفيين كلما رأوا

فرقة من الفرق عن أسمها ، ولما سألونا أجبناهم عن فرقتنا انها « فرقة الحديد ». وضحك الضباط والصحفيون وتبادلوا النكات مع القوات ، ثم تلتنا مجموعة من مجموعات المفرقعات والالبيني ، وانتشر سيل جارف من الرجـــال وغطى الصحراء .

ولما توغلنا في زحفنا بدأنا نعثر على خطوط العرب مطبوعة على الرمال التي لا زالت مبللة . وعثرت انا على « مخلاة » وفتحتها فوجدت بهـــا سجادة صلاة صغيرة ، وكانت هذه السجادة جافة جداً ، مما يدل على ان صاحبها لم يتركهـــا الا قبل دقائق قليلة ، وعلى ان الاتراك يراقبون تحركاتنـــا من مراكزهم وينقلون الأخبار عنا من كثيب رمل الى آخر حتى يعلموا القيادة العامة التركية في عين زارة بمواقعنا . وترك رجالنا السجادة مبسوطة على الأرض ومروا بجانبها وتبادلوا النكات والضحكات عنها فعلق جاويش « ان الاتراك مؤدبون . هـا هم يفرشون لنا البسط لنمشي عليها » .

ولم نكن مخطئين في تقديرنا أن العدو كان يراقبنا وينتظر قدومنا .

ان مجموعات بسيطة وصغيرة من رجاله مبعثرة في المنطقة تطلق علينا النار لوقت قصير ثم ترتد لتلحق بالمواقع الرئيسية لشد أزر المقاومة التي بدأت ضد قواتنا المتقدمة . وتمركز رجالي وبدأوا في إطلاق رصاصهم على حوالي مئة من العرب الذين كانوا يقاومون وراء كثبان من الرمال .

وبدأنا نسمع أصوات العربات التي تجر المدفعية في طرفنا الأيمن . وبنفس الوقت بدأ القتال وزادت حدة رصاصه ، فأمرنا رجالنا بالإسراع إلى التحصن ، لكننا نحن الضباط بقينا واقفين. ورفض بعض رجالنا الانصياع لأوامرنا وبقوا على ركبهم يطلقون النار ويتحدون الموت . ورأيت أحد رجال البيرزاليير ي يرمي بندقيته على الأرض ويمسك بكتفه بيده، فأسرعت نحوه وسألته عما جرى فقال : « لا شيء أبداً، إلا أنني أصبت، لكني أستطيع الاستمرار في الزحف». وغادرته الروح بعد إتمام عبارته ونقله رجال الإسعاف إلى أقرب وحدة لهم .

وقاوم الأتراك لمدة عشر دقائق تقريباً ثم انسحبوا . وبدأ تقدمنا على طول الخط ، وبدأت أيضاً مدفعية الميدان ومدفعية الأسطول تدك مواقع الأتراك في عين زارة دكاً متواصلاً .

وغطت السماء سحب كثيفة وانهمرت الأمطار بغزارة وأشبعت ابتلالَ بدلنا ومعاطفنا وزادت حمولتها . والتصقت الرمال برجالنا كلما اضطروا للانبطاح عندما ينطلق الرصاص عليهم ، واختفت زرْقة السماء وحل محلها غيم ورياح وعواصف ، وظهر منظر الصحراء كمنظر يوحي بالعزلة بعد أن غطت السحب ضوء الشمس عنها .

وبعد وقت قصير جداً اصطدمنا بأربعمئة عربي وتركي اشتبكنا معهم في القتال . ورأينا على بعد منا مجموعات من الأتراك يتقدمون من معسكر عين زارة ، لعلهم في طريقهم إلى تعزيز المواقع الواقعة ضد خطنا في اليسار . انهم يتقدمون في صفوف كالخيط الرفيع يرتفعون ويغوصون مع كثبان الرمل وكأنهم موكب من حشرات ما أن تراه الآن حتى يختفي في منخفض بعيد عنك .

وبدأ الإعجاب والدهشة في صفوف قواتنا ، وبدأ رجالها يشيرون إلى السماء بفخر لأنهم رأوا الضابط موئيزر محلقاً بطائرته متحدياً العواصف والرياح . وأخذ يزيد علوه حتى أطلق شيئاً ما كالسهم مؤشراً إلى مواقع الاعداء. ثم زاد ارتفاعه فوق تلك المواقع ، ورأينا شيئاً ما يرتعش على خلف طائرته . انه .. انه علمنا الوطني يرفرف هناك. وبعد طيران قليل نشر موئيزر اشارات كالخواتم على بقعة معينة وحلق فوقها وكأنه صقر يحلق على احدى فريساته .

ولم تمض خمس دقائق من بعد ظهور تلك الإشارات حتى رأينا ثمانية أعمدة من الدخان الكثيف تنبثق وكأنها شجرات على طرف الأفق الذي أمامنا . لقد رأى سيد الجو مراكز العدو وقصفها بقنابله ، واختفى عن أنظارنا بعد ذلك عائداً إلى مكانه .

وبدأ المراسلون الحربيون ينتقلون،من وحدة إلى أخرى على خيولهم لإعطاء آخر الأوامر والمعلومات . وأعلمنا أحدهم ان العدو قد تمركز على بعد ثمانمئة ياردة فقط ضد وسط خط هجومنـا وكان فرسه مجروحاً في ساقه ولكنه لم يتوقف .

ولكننا استمرينا في تقدمنا وزحفنا وحوّشنا العدو أمامنا من خندق بعد خندق، لانه لم يستطع تحدي قنابل المدفعية ، وخشي أن يقع في التطويق . أما مدفعيته فلا زالت تطلق علينا النار. وهنا طلبنا من المعسكر أن يطلق الثلاثين مدفعاً – صناعـة كروب – ثقيلاً على المراكز التركية في عين زارة . وبنفس الوقت قطع الجنرال رينالدي وقواته مستنقعـات المجنين الواقعة على يميننا ، ونحن نرى الآن قواته تتقدم مبعثرة على كثبان من الرمـال مشتبكة مـــع العدو في المعركة .

ثم حلق الضابط دينتي بمنطاد ، على علو ألف وخمسمئة قـدم وبدأ يومىء بإشارة حمراء حتى يصحح لفرق المدفعية أمكنة القصف . وبدأ الجنرال ليقنيو في إعطاء أوامره المدفعية حسب إشارات ذلك المنطاد. ورمت مدافعنا قنابلها بكل دقة وغيرت اتجاهاتها بسرعة فائقة .. فهي تارة تساعد مقدمتنـــا وتارة أخرى تمهد الطريق لكل القوات .

ويتحرك رجال المدفعية بذكاء مدهش فما ان يصرخ الجنرال بأوامره حتى يندفعوا يجرون مدافعهم في مراكز جديدة على مرتفعات أرضية متقدمـــة . ويطلقون النار ، فترتد العربة ويعيدوها إلى مكانها . إن هـــذه المدافع تشبه الإنسان إذ ما أن تطلق طلقتها حتى تقفز راجعة إلى الخلف كأنهـــا طفل ، وتفرض على الرجال إرجاعها إلى مكانها الأول .

وأطلق هؤلاء الرجال مدافعهم وقاسوا مدى دقة الطلقات..أخطأت الأولى والثانية ولكن الطلقة الثالثة كانت في خنـــادق الاتراك . فضبطوا معدل قياساتهم . والتحقت بهم المدفعية الأخرى، وواصلوا القصف بنفس القياس.وفي

نفس الوقت بدأ رجال آخرون في قياس مواقع المدفعية التركية من مرمى قنابلها. وبعد عشر دقائق من الزمن رأينا الأتراك ينسحبون إلى الوراء ، فبدأنا تقدمنا من جديد واحتلينـــا مواقعهم . ووجدنا منهم رجلين ميتين وستة جرحى . وأمرت بنقل الجرحى في الحال الى المراكز الطبية ، ثم أصدرت الأوامر لرجالي بإعطاء التحية العسكرية لأحد القتيلين لأنه كان بدرجة ضابط ووقع في ميدان الشرف .

تمتد الصحراء الآن أمامنا بشكل رتيب متناهية نحو الافق تتموج بكثبان الرمال وكأنها بحر هبت عليه عاصفة فأثارته . ونرى العرب والاتراك يتقافزون من كثيب إلى آخر ويطلقون النار علينا وتسطع وجوههم كلما استطاعت أشعة الشمس التسلل من السحاب الكثيف . ونحن نلمح جرودهم البيضاء ، ونتقدم نحوهم. ويتراجعون هم ويتركون آثار خطاهم على الرمال مطبوعة كأنها على ثلج مندوف . ونعرف انهم قد تركوا المنطقة لتوّهم قبل أن نتقدم إليهـــا ، ونلاحظ هنا آثار قدم حافية وهناك آثار « ملابس » عربية وفي مكان آخر آثار حذاء تركي .

وكلما زاد تقدمنا أطلق العدو نيرانه علينا، ولكننا لم نتوقف أبداً ولم يتعطل زحفنا رغم وقوع بعض منا قتيلاً هنا وهناك دون صرخة ألم أو آهة عذاب . وأصابت احدى الرصاصات بغلاً وقتلته ، فعلق المشرف عليه « روحك ولا روحي » . أمـــا العقيد فارا فقد كان ممتطياً جواده ويعطي الاوامر من مايكروفون يحمله معه .

والتحمت قوات الجنرال جاردينا التحاماً قوياً مع قوة من العدو متحصنة في مراكز قوية ومع فرقة أخرى كانت تحاول عرقلة حركة تطويقنا لعين زارة من الجنوب الغربي .

لقد مضى علينا من الوقت خمس ساعات من القتال ، وهـــا هي عين زارة تلوح لنا وتغيرت طبيعة الأرض فأصبحت الآن مغطاة بالأعشاب وأشجار النخيل

ووراءها سهل أخضر به خيم الاتراك ، وبجانبها منزل كبير على مقربة منه خيمة ضخمة قد تكون هي خيمة القائد العام التركي نشأت بك ؛ أما طرابلس فبعيدة عنا الآن ولا نرى منها الا الأعلام الإيطالية مرفرفة هنا وهناك عالياً .

وأصبح تقدمنا الآن تقدماً مندفعاً . . رجالنا يركضون من كثيب رملي إلى آخر ، ومقاومة العدو تشتد وتستميت : تارة تتوقف وتارة أخرى تعود بقوة أشد مما كانت . ولعل هذا العدو يعتقد ان توقفنا بعض الاحيان عائد إلى شدة مقاومته ، لأنه لا يعرف اننا نتوقف حتى نعطي مجالاً من الوقت لجناحنا الأيمن للحاق بنا في تقدمه .

حلت الآن الساعة الثانية بعد الظهر وجاءت الاوامر الى رجال البيرزالييري لكي يقوموا بغارة على آخر مركز للأتراك واقع وراء مرتفع يعد أعلى المرتفعات الموجودة حولنا ويسيطر على ميدان المعركة كله . ورأينا فرق جناحنا الأيمن تنضم على عين زارة من ناحية الجنوب وتطبق فرق الجنرال رينالدي عليها من ناحية الشمال . وتركت الفرقة الثانية والخمسون سيدي المصري وهي الآن ترد مئات من الاتراك الذين حصنوا أنفسهم في مسجد أبو سعد حتى يقوموا بهجوم ضدنا .

وقد استغرق رجالنا ثلاث ساعات من الوقت في الاستيلاء على مسجد أبو سعد وهجموا عليه ثلاث مرات وارتدوا ثلاث مرات . . لان المقاومة ضدهم كانت مقاومة عنيفة ، واستولوا عليه في النهاية بعد معركة دموية .

وقد اقترنت معركة مسجد أبو سعد بهجوم مضاد ضدنا على طرفنا الايمن القصي ، أجبرَنا على تأجيل زحف مواقع الوسط ضد العدو . واستغل العدو هذا التأجيل فانسحب نحو العزيزية وترهونة .

ووصلنا آخر مرحلة من مراحل المعركة في الساعة الرابعة مساء وتجمعت قواتنا في خط هجوم طوله نصف ميل تقريباً واندفعت اندفاعاً واحداً ، مطوقة

الواحة . وتوقفت مدافع الأتراك ومدافعنـــا من القصف الآن ، وتقدم جيشنا المكون من ١٦ ألف رجل يتقدمه ضباطه نحو الأتراك الذين يمطروننا برصاصهم دون أن يفلحوا في عرقلة سيرنا وزحفنا المظفر .

وفجأة تفرق العدو وانتشر في الواحة بين أشجار النخيل . ويظهر انه كان يريد البقاء حتى الالتقاء بنا ولكنه غير مخطط لذلك .

لقد كانت فرقتي محظوظة ووصلت الأولى الى الخنادق والمراكز التي تركها العدو،ووجدنا المئات والمئات من جثث العرب والأتراك مطروحة على الأعشاب وصناديق الذخيرة والملابس مبعثرة في كل مكان . وقد قدرنا قوات العدو بحوالي ثمانية آلاف رجل بعد أن عرفنا حجم المراكز التي كانت بها وعدد الجرحى الذين بقوا في ميدان المعركة . وابتدأ رجالنا في بنـاء خنادق لهم بعد احتلالنا مواقع الأتراك رغم مضي عشر ساعات كاملة عليهم وهم في خط النار والمعارك. وقد عثرنا على سبعة مدافع تركها الأتراك وسنحولها إلى طرابلس لكي نزين بها مدخل قصر الوالي .

الفصل العشرون

تغيير طرابلس

بدأت طرابلس مرحلة من التغير ورؤية الحياة المزدهرة رغم ان العمليات العسكرية لا زالت جارية في مناطق الواحات المجاورة لها . وان من يعرف طرابلس قبل مجيء الإيطاليين يعرفها كمنطقة خالية مهجورة تمتد إلى ما يسمى بالميناء الذي لا تأوي إليه إلا سفن الشرق لترمي بنفسهـــا في بحر الخمول ، مظلمة طوال الليل . أما الآن فطرابلس تختلف رغم ان الاحتلال الايطـالي لم يأتها إلا قبل سبعة أشهر فقط .. لقد تحولت الحياة فيها إلى حياة مرحة تملؤهـا الحيوية والانشغال ، وانتشر ضوء الكهرباء وفتحت بها المستشفيات والملاجىء للفقراء والمرضى ، والمدارس ومكاتب البريد . وباختصار بدأت طرابلس ترى معالم الحضارة .

ويبدي المصريون والتونسيون والجزائريون الذين ينزلون من البواخر المارة بطرابلس إعجابهم واستغرابهم لأنهم يعرفون كيف كانت طرابلس تحت الدولة العثمانية .

وقد تضاعف عدد سكان طرابلس خلال السبعة أشهر من الاحتلال الايطالي وتغيرت المدينة تغيراً كلياً : من مبنى الجمارك إلى المكاتب الحكومية ومن الشرق الى الغرب ، وانتشرت بها المتاجر الإيطالية تحمل لافتات عليها أكبر عبارات الوطنية ، وافتتحت المتــاجر الجديدة عارضــة للبيـع كل المنتجات الايطالية من

فيرموث تورينو الى ماكارونة ميلانو !ويزداد عدد هذه المتاجر يومياً ، ولا أشك ابداً في ان طرابلس ستصبح مثل تونس ، خلال سنة أو سنتين فقط بعد أن يتم بناء مينائها .

وقد بعث المستر وود قنصل الولايات المتحدة الامريكية بطرابلس تقريراً إلى الحكومة الأمريكية قال فيه : ان الحكومة الايطالية قد بنت محطتين بالميناء بلغت تكاليف الواحدة منهما أربعة آلاف جنيه استرليني،وبدأ هذا الميناء يشهد حركة تجارية كبرى في خلال الاشهر الماضية ، ويبلغ معدل السفن الذي تدخله يومياً ثلاثين سفينة وزورق بالاضافة إلى زوارق وسفن الصيد .أما سلطات الميناء الجديد فتخطط لمد فاصلين بـــه حتى تحميه من العواصف التي تهب من الشمال الشرقي والشمال الغربي . . وسيصبح من موانىء البحر المتوسط المتمتعة بالسلامة . وسنضع جزءاً منه خاصاً بسفن الأسطول الحربي .

أما في مجال تطوير الحركة الزراعية والمعدنية فيعد مشروع مد خط سكة حديدية الى عين زارة ومناطق غريان الخصبة بالزيتون من أهم المشاريع التي بدأنا في تنفيذها الآن . ونحن ندفع مبلغ سبعة فرنكات كأجرة للعامل الأبيض و١٢ فرنكاً للمراقبين البيض . أما بالنسبة للعمال العرب والزنوج ؛ فلا ندفع إلا مبلغ فرنكين ونصفاً في اليوم ، لأن العامل من هؤلاء العمال كان يعمل مقابل نصف فرنك إن قدر له أن يجد عملاً قبل مجيء ايطاليا .

الفصل الحادي والعشرون

وضع الجيش التركي

لقد انسحب العدو بعد معركة عين زارة إلى ترهونة وغريان التي تبعد حوالي سبعين ميـــلاً عن طرابلس ، وقمنا نحن باحتلال تاجوراء في يوم ١٣ ديسمبر ووضعناها تحت سلطتنا . وقد ترك العدو بيننا وبينه مسافة حتى يعيد تنظيم صفوفه ويجمع ما يحتاجه من مؤونة وذخيرة ويتلقى مقاتلين جدداً من مجندي غريان وترهونة بعد أن هزم في معركة عين زارة في نفس الوقت الذي لم نزد فيه نحن تقدمنا .

وقد أقدم العدو بعد أن جمع ما يحتاج من معدات على تعزيز مواقع العزيزية التي تبعد عنا حوالي ٢٥ ميلاً ، وبدأ يعمل كل ما في جهده للتحرش بنـــا عن طريق مهاجمة فرق الاستطلاع التي نرسلها لاستكشاف مواقع العزيزية .

وكانت أهم التحرشات التي وقعت ضدنا تحرشات يوم ١٩ ديسمبر عندما كنا نحاول الاستطلاع على بئر توبراس ، وتحرشات يوم ٨ ينـــاير سنة ١٩١٢ عندما وصلت بعض من قوات العدو إلى مراكزنا في عين زارة وهاجمتها ، بالإضافة إلى هجوم قامت به فرقة من العرب والأتراك ضد مدينة زوارة — حتى تمنع السكان من الاعتراف بنا ، وتعاقب أولئك الذين أبدوا ولاءهم نحونا فيما مضى. وقد انتقم الاتراك والعرب من هؤلاء السكان بقتل أطفالهم ونسائهم ورجالهم العزل من السلاح ، ثم حصنوا أنفسهم في قلعة واتخذوا منها مركز قيادة لهم حتى يستقبل الأسلحة المهربة من تونس عن طريق زوارة ثم يحولونها إلى العزيزية .

ولم تنج قرقارش من عقاب العرب والأتراك رغم انها لا تبعد عن طرابلس إلا بمسافة أربعة أميال . وتقدم سكانها إلينا يطلبون الحماية ، فأرسلنا لها قواتنا واستولت عليها بعد معركة بسيطة يوم ١٨ يناير. وركزنا أنفسنا بها،وبعد ذلك أصبحت جنزور تحت سيطرتنا أيضاً .

وقام الأسطول الايطالي والمناطيد بقصف زوارة عدة مرات ودمرها كلية ولكنها لم تستسلم بعد . ولا زالت القوات العربية والتركية متمركزة بها لأنها ملتقى الطرق المؤدية إلى تونس،ويتخذون منها محطة للقوافل الذاهبة والآتية من تونس الى العزيزية وغريان والجنوب .

وتركنا الأتراك والعرب يسيطرون على هذه المدينة حتى نجبرهم على الدفاع عن جبهة طويلة ، تُضعفهم استراتيجياً ، وقررت القيادة الايطالية احتلال شبه جزيرة « مخـــابز » الواقعة شمال زوارة حتى تكيل ضربة قاضية لهم وتقطع دابر عمليات التهريب التي تأتي من تونس بالسلاح .

وقـــاد الجنرال كارنيوتي القوة التي احتلت شبه الجزيرة يوم ١٠ أبريل ، وقاومه العدو ثم اضطر إلى الانسحاب ، ولكنه لم يتوقف في إعـــادة الهجوم يومياً محاولاً الاستيلاء عليها من القوات الإيطالية . وقد أجبر احتلالنا لشبه جزيرة مخابز القوافل التي تهرب السلاح من بن قردان إلى قطع رحلة أطول من الرحلة التي كانت تقطعها بمسافة مئة ميل في الدواخل ، وكانت النتيجة أن قـل العتاد والذخيرة بين الأتراك في العزيزية وتضاعف سعره .

وقد حولنا نحن عين زارة إلى قلعة حصينة إيطالية من الدرجة الأولى تحميها المدفعية الثقيلة وفرق المشاة. ولا يمكن حتى لعدو أعداده خمسة أضعاف القوات الموجودة بها أن تحتلها،وربطناها بسكة حديد ممتازة بمدينة طرابلس،وأعددناها لتكون محطة لعملياتنا العسكرية ضد العزيزية وغريان في المستقبل ان لم تتدخل القوى الاوروبية لإنهاء الحرب قبل أن تبدأ ايطاليا مواصلة الزحف .

الفصل الثاني والعشرون

معركة المرقب بالخمس

لقد كان من الضروري احتلال عين زارة حتى نؤمن مواقعنا بطرابلس وأصبح من الضروري أيضاً الاستيلاء على جبل المرقب حتى نحمي مراكزنا في مدينة الخمس . ويبعد المرقب عن هذه المدينة بمسافة حوالي أربعة أميال . وبنى الأتراك والعرب على قمته تحصيناتهم ومراكز دفاعهم ، ويبلغ ارتفاعه حوالي سبعمئة قدم عن مستوى سطح البحر . وقد كان في السابق ملجأ لقطاع الطرق الذين يتحدون السلطة التركية .

وقد هاجم العقيد مارجيوني هذا الجبل عندما احتلينا مدينة الخمس في يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٩١١ واحتله من العدو ، لكنه لم يستطع الاحتفاظ به لأن قواته كانت لا تكفي آنذاك . هكذا واضطر إلى التراجع الى مدينة الخمس حتى تصله الامدادات .

وكنا نفكر في وضع قواتنا بالخمس كلما وقع ضدنا هجوم بطرابلس لأننا نعرف ان العدو يجمع قواته ومدفعيته ضد تلك القوات ويهددها يومياً . وزاد الخطر عليها عندما نصب الأتراك مدافعهم على قمة جبل المرقب .

وفي أحد أيام شهر يناير أطلق الأتراك قنبلتين على الخمس وكأنهم يتحدوننا، واستمروا يكررون نفس العملية ونفس الدور لعدة أيام حتى يوم ١٢ ينـــاير عندما أطلقوا اثنتي عشرة طلقة على المنازل . واضطرت مدفعيتنا أن ترد عليهم

ودمرت مواقعهم وأسكتت مدفعيتهم. ولكننا قررنا الاستيلاء على تلك المواقع. ووضعنا الخطة ، ووصلتنا قوات جديدة ، وقمنا بمناورة تحريك بعض السفن من الميناء وجعلناها تتجه شرقاً يوم ٢٦ فبراير وكأنها مسافرة إلى زليطن — حتى نجبر الأتراك على تحويل بعض قواتهم إلى تلك المدينة من جبل المرقب .

ورأينا أن الموقف قد أصبح في صالحنا، فقررنا الهجوم على جبل المرقب يوم ٢٧ في الساعة السادسة صباحاً وأعددنا سبعة آلاف جندي لتنفيذ العملية. وجاء الوقت المحدد وبدأنا زحفنا . واحتلت الفرقة التاسعة والثمانون مركز الوسط بجانب فرقة من الألبيني وقطعة مدفعية ونصف وحدة من وحدات سلاح الهندسة ، واحتلت الفرقة الثامنة من البيرزاليري جناحنا الأيمن وفرقة أخرى في الجناح الأيسر ، وتركنا مدفعية من عيار ١٤٩ م.م منصوبة حول مدينة الخمس في أمكنة لا ترى حتى تكون مستعدة لتغطية تقدمنا .

وكانت خطة الهجوم على المرقب مرسومة كما يلي: نترك مراكزنا قبل الفجر حتى نستغل الظلام في إعادة وضع تجمعنا تحت جبل المرقب نفسه دون أن يرانا العدو ، وحين يتم التجمع تبدأ المدفعية في قصف قمة الجبل حتى تغطي تقدمنا . وكان من المقرر أن نستولي على هذا الجبل بشكل عاجل . وفي حالة تعرض الخطوط الأمامية لأي تعطيل تقوم فرق طرفينا بعملية تطويق للجبل . وكانت قواتنا تحت قيادة الجنرال رايسولي .

وقد كان عامل الهدوء والسكوت بيننا مهماً في عملية الزحف ، وما ان حل الفجر حتى كان المرقب محاطاً بغطاء كثيف من قواتنا . واكتشفنا العدو وأطلق صرخات الانذار وبعض طلقات الرصاص، وبدأت مدفعية الخمس ترسل قنابلها على قمة الجبل . وكان عدد قطع هذه المدفعية ثماني عشرة قطعة منها اثنتا عشرة قطعة من عيار ٧٥ م م. وست قطع من عيار ١٤٩ م.م. ولم تدم مقاومة العدو طويلاً ، واندفعنا نحن نتسلق سفح المرقب ونصرخ « سافويا » وبدأت مقاومة العدو تتشتت .

وسقط أحـــد الضباط الأتراك قتيلاً بعد أن اصابته رصاصتان ، ووجدنا لباسه غريباً : قميصين من حرير وازراراً من ذهب ! أصابعه تغطيها خواتم من ذهب غالية وتحيط بمعصمه خصلة من شعر امرأة. لكنه كان بطلاً، فقد انسحب رجاله وتقدم رجالنا ولكنه بقي واقفاً يحمل مسدسه ويطلق علينا النار بدون توقف حتى رمى أحد رجال الالبيني نفسه عليه وطعنه طعناً مرتين وقتله .

وقد ترك العدو مدفعين في خطوطه عندمـــا انسحب . وبحلول الساعة الثامنة استولينا على جميع مراكزه واحتلينا قمة الجبل . ووصلت مدفعيتنـــا وبدأت في إطلاق النار على المنسحبين وترميهم قتلى . والتجأ من بقي منهم حياً وراء جبل صغير يبعد عنا حوالي نصف ميل حيث بدأوا في إعادة تنظيم قوتهم حتى يقوموا ضدنا بهجوم معاكس .

وبدأ العدو يطلق إشارات من دخان كثيف حتى تتجمع قواته . ورأينا فرقه آتية ، خاصة من ناحية زليطن ، نحو الجبل الذي يواجه جبل المرقب حيث يرفرف علمنا . وتدريجياً زاد عددها واحتلت قمة ذلك الجبل ، بـــل وزحفت الى سفحه الذي يقابلنا . وحلت الساعة الثانية عشرة ، ووصلتنا بعض قطع المدفعية . وحالاً ركزناها في أماكنها . وفي الساعة العاشرة (؟) تقدمت أجزاء قواتنـــا نحو المنخفض الذي يفصل المرقب عن الجبل الذي به العرب والأتراك الذين اعتقدوا انهم سيفلحون ضدنا هذه المرة ، ان اعتمدوا كما اعتادوا على سرعة الحركة . لقد كان عددهم خمسة آلاف رجل..واستطاعت قواتنا أن تخدعهم بتظاهرها انهـــا كانت تنسحب بعد وصولها لمراكزها في المنخفض ، فاندفعوا هم من قمة جبلهم وسفحه نحو جبل المرقب وانطلقت مدفعيتنـــا تحصدهم على طول خط زحفهم .

وتفجرت قنابلنا بينهم وبدأت الفجوات في خطوطهم واضحة لنا.وتكدس القتلى والجرحى منهم ، وزادت قواتنا قوة رصاصها وبدأ القتال بالسلاح الأبيض في الساعة الثالثة حتى انسحب العدو بعد سقوط مئات من رجاله قتلى في الميدان.

وقد أبدع أحد رجال الالبيني في المعركة بلاء حسناً ! انه شخص لا يعرف الخوف ومعروف بين زملائه بالإقدام، ونال في معارك الخمس ميداليتين ذهبيتين، واستولى نهـــار أمس على أحد العرب حياً وسلب منه بندقيته وثمانين طلقة رصاص وجاء به إلى القيادة . واسم هذا البطل السنيور فيني موندو . وقـــد اشتبك مرة مع أحد شيوخ العرب وقتله وفلق رأسه وجر جثته بكل هدوء إلى مدينة الخمس . ومن الأسف ألا يكون لهذا الرجل البطل قريب في هـــذا العالم يشاطره لذة انتصارات بطولاته !

واننا نقدر عدد القوات التي اشتركت في الهجوم الأخير بخمسة آلاف رجل سقط منهم ألف قتيل وجريح ، أما نحن فقد خسرنا ٢٦ قتيلاً منهم ضابطان و ١٣٠ جريحاً و ١٥ رجلاً عطلوا عن العمل .

ان الاستيلاء على المرقب أنهى حرب العصابات التي كانت قائمة ضدنا خلال الأربعة أشهر الماضية ، واستطعنا هنا كما استطعنا بطرابلس أن نشل مقاومـة العدو .

الفصل الثالث والعشرون

العمليات العسكرية ببرقة

ان وضعنا في طرابلس الآن مستقر ويكاد العمل في بناء سكة حديدية من عين زارة حتى ميناء طرابلس ينتهي . وفي الخمس حصنا مواقعنا العسكرية على جبل المرقب حتى نعيق اعتداءات العدو علينا ونعد لعملياتنـا العسكرية في المستقبل ضد الدواخل. أما في برقة فلا زال القتال جارياً على الجبهتين الدفاعية والهجومية.

ولا تتوقف الهجومات علينا أبداً . وكان آخر هجوم شديد وقع ضـدنا هو هجوم درنة يوم ١٦ نوفمبر الذي دحرنا فيه العدو ولكنه اعاد علينا الكرة مرة أخرى في يوم ٢٤ ومرة ثانية يوم ٧ – ديسمبر .وفي كلتا المرتين الحقنا به خسائر فادحة .

وقد اتخذ العرب والأتراك من منطقة تبعد عشرة أميال عن درنة مقر قيادة لهم ، ويظهر ان هدفهم الأول هو منعنا من بناء مراكز المراقبة في الدواخـــل ومحاولة السيطرة على وادي درنة الذي تأتي منه المياه للمدينة . وقـــد نجحوا عدة مرات في تغيير مجرى هذه المياه وجعلوا الموقف في درنة حرجاً جداً رغم وجود خزانات الاسطول . ان القتال كله يدور حول مصادر المـاء . وكان أشد هجوم قام به الاتراك حولها هو هجوم يوم ٢٧ فبراير الذي استمر من الفجر حتى المساء في منطقة بومسافر . واثبت رجالنا في ذلك اليوم شجاعتهم وقدرتهم التي تميزوا وعرفوا بها في المعارك ، واشتركت من قواتنا سبع فرق وست قطـع من المدفعية مقابل سبعة آلاف رجل من رجال العدو ومدفعيته .

وبدأ العرب كالعادة الهجوم ، وحاولوا بطريقتهم المعتـــادة ان يجرونا إلى البقاع التي اختاروها حتى تغير علينا قواتهم المختفية وراء كثبان الرمال، لكنهم فشلوا لأننا لم نترك مخابئنا .

ولم تصل المعركة حدة قوتها الا في منتصف النهار عندما بدأنا نطلق النار على العدو المنسحب ، ورأينـــا الجبل الذي يقابلنا مغطى بالأتراك والعرب آتين لاعادة المحاولة . وبدأوا الاشتباك مع قلعة لومبارديا التي كانت تمثـل السيطرة على السهل الذي نحن به، وحاولوا الانضمام حول مراكزنا من الناحية الشمالية . وتصدت لهم مدفعيتنا . ودار قتال عنيف قاوم فيـــه العدو مقاومة شديدة . وزادت قواته وملأت الفجوات التي فتحتها المدفعية الى خطوطه ، وحصدت بنادقنا الرشاشة رجاله حصداً.. لكنهم يعودون ويقاتلون وكأن الحيـاة تبعث فيهم من جديد . واستمر القتال لمدة ساعتين ولم نستطع أن نزحزح هذا العدو ولو انش واحد من مراكزه كما لم يتوقف عن إمطارنا برصاصه .

ولكن مدفعيتنا لم تتوقف عن القصف ولم يتوقف ضباطها عن اعطاء الأوامر واستمرت طلقاتها بدقة متناهية، وجرح كل رجل من رجالها ولكنهـم واصلوا القتال .

وقد قررنا أن نقوم بهجوم معاكس حتى نشل مقاومة العدو ، وفي الساعة الثالثة تماماً صدرت الأوامر لفرق الالبيني بالزحف على العدو . وانطلق رجالها يصرخون ، يندفعون كالوحوش على خطوط العدو . ورموا بأنفسهم عليهـا . وبدا الأتراك وكأنهم مصممون على البقاء في مراكزهم واطلقوا نيرانهم على رجالنا الذين سقط منهم من سقط جرحى وقتلى، ثم تم الالتحام بالسلاح الأبيض وارتبكت خطوط العدو الامامية وبدأ يهرب في كل الاتجاهات كعادة العرب عندما ينهزمون .

اما القوات التركية التي كانت مرابطة في المؤخرة فكانت مستحكمة في أماكنها، لكن شباب الالبيني زادوا قـــوة هجومهم وتقدمهم وزحفوا على المنطقة التي

كانت مغطاة بالجثث يطاردون عدوهم التركي الذي طالما تطلعوا للالتقاء به . واشتبكوا معه في قتال بالسلاح الأبيض .

ولما وصل رجال الالبيني الى خطوط الأتراك رفع أحد الضباط الأتراك خنجره تجاه أحدهم ، ويظهر أنه كان يريد أن يقول شيئاً ، ولكنهم لم يعرفوا المقصود : هل كان يريد أن يستغيث ، او هل كان ينادي رجاله للمقاومة ؟ من يدري ماذا قصد ذلك التركي ؟ وهجم رجالنا كأنهم جلمود ، وكان الضابط التركي أول من يقع قتيلاً تحيط به كومة من جثث جنوده . ولم ينج من الاتراك إلا عدد بسيط بعد هذه الغارة ، وبدأ الجنرال كابيلو يطوق العدو من ناحية اليمين حتى يحسم معركة اليوم .

وقد جرح أنور بك قائد القوات التركية في معركتنا هذه بينما كان يشرف على قيادة المعركة ، ولكن الحكومة التركية تكذب الخبر تارة بعد أخرى لأن أنور بك يعد أقدر ضابط تركي في افريقيا . وتخشى الحكومة التركية أن يثير خبر جرحه ضجة في الجيش التركي . ولكن من المؤكد أنه جرح في معركة درنة التي نتحدث عنها أي معركة يوم ١٢ فبراير ١٩١٢ . وقد عرف أنور بك لا بشجاعته فحسب بل وبقدرته على نشر وإشاعة الأخبار التي تخدم أغراضه وتحول الهزائم التركية إلى انتصارات .

الفصل الرابع والعشرون

عاصمة برقة

بدأت بنغازي تشهد حياة جديدة – حياة من الطراز الأوروبي ، والعمل جار على قدم وساق الى مينائها . وقد اتممنا الآن نصفه ، وعشرات من العمال العرب يعملون في بناء حائط يحيط بها حتى نجعلها في مأمن من الهجمات .

ان العامل من هؤلاء العمال العرب يلعب دور الفنان في عمله لأنه يبذل أقل مجهود في العمل ويبذل أكثر مجهود في الضوضاء . وتقوم قواتنـا بالإشراف على العمال الذين انجزوا حتى الآن مئات الياردات من هذا الحائط. وبدأت الشوارع الجديدة تعج بالحركة ،أما الشوارع القديمة فتمسحها الجرارات،ويمر العرب بجانبها في مجموعات غير منظمة وهم يرتلون القرآن .

وقد زادت حركة بنغازي عشر مرات على ما كانت عليه قبل مجيئنا منذ سبعة أشهر فقط،فسيارات الشحن الآلية تشقها محملة بالعتاد والمؤونة إلى قواتنا ، وتلتقي بالقوافل معبأة بالاحجار ومواد البناء ، ويصل القطار كل نصف ساعة وتزداد الحركة والنشاط .

وقد امتدت خطوط دفاعنا إلى حوالي خمسة أميال من بنغازي بعد معارك عديدة ، ووضعنا شبكة من مراكز الحراسة والتفتيش على طول هذه المناطق.

وعدونا يعرف هذه الخطوات طبعاً. وقد حاول عدة مرات أن يمتحن قوتها فهجم تارة على مركز تفتيش وتارة أخرى على مركز تحصين وعمل مـــا في جهده لإبادتهم ، لكنه الآن بدأ يفهم أن قوته لم تعد كافية وأن بنغازي قد ضاعت منه إلى الابد مثلما ضاعت درنة والخمس وطرابلس وطبرق .

وها هو العدو الآن على بعد خمسة عشر ميلاً شرقي بنغازي ، ومن يقف على مئذنة أحد المساجد يرى رئاسة المعسكر التركي وسبعة آلاف رجل من رجاله ولا تفصلنا عنه الا واحة صغيرة اسمها واحة « النخلتين » .

الفصل الخامس والعشرون

معركة واحة النخلتين

لقد شهدت هذه الواحة معركة حامية الوطيس يوم ٣ مارس ١٩١٢ بعد أن تحرش الأتراك بقواتنا وحاولوا جرها من مواقعها بعد أن ساعدهم البدو . وكان مخطط الأتراك يهدف إلى جرنا إلى واحة النخلتين وهناك ينقضون علينا بثلاثة آلاف رجـل من ناحية اليسار وببقية قواتهم من ناحية اليمين – على أن تكون القوات المكونة من الجنود الأتراك في خط الوسط كعادتها، حتى تكون على بعد من المعركة !

وقـــد شعر الجنرالان برسكولا واميليو ان المعركة ستنشب لأنهم رأوا المناورات التي كانت تحدث شرقي آبار النويهات ، وقررا بدء هجوم قوي ضد العدو مكون من : سبع فرق من المشاة وخمس قطع مدفعية وفرقة من الخيالة تحت قيادة الجنرال أميليو . وتقدمت قواتنا إلى سهل تغطيه الأحجار الصغيرة ولا غطاء فيه وقابلت قوات العدو ، وبدأت المدفعية تقصف الواحة ومن فيهـا والقوات التي بدأت تزحف لملاقاتنا .

ولما قاربت قوات العدو قواتنا أصدر الجنرال أميليو أوامره بإطلاق النار. وضغط رجالنا على أصابع بنادقهم حتى جاءتهم الأوامر بالتوقف ، لأن العدو زال بعيداً عنها بحوالي ستمئة ياردة . ولا يصيب الرصاص العدو إصابات قوية ، ولا بدّ لنا من التحرك إلى الأمـــام . وتحركنا تاركين وراءنا كوماً من علب الرصاص الفارغ .

وتحركت الخيالة لحماية طرفنا الايمن واختفت في السهل ، لأن الغبار الذي أثاره فرسانها حجبها عنا . ورأى الجنرال أميليو جزءاً من قوات العدو تقترب على بعد أربعة أميال ، واعتقد أن الغبار سيعيق فرقة الخيالة من رؤية هـــذه القوات ، فأرسل لهم مراسلاً لينذرهم بالخطر ولكن قائدها قرر ملاقاة العدو.

واندفعت تلك الفرقة في ذلك السهل وغطى الغبار المنطقة وكأن رياح القبلي قد هبت عليها . ورآها العدو فنشر قواته وبعثرها حتى يستطيع بدء الهجوم عليها من الجنوب ويعزلها عن بقية القوات، لكنها غيرت اتجاهـــا في الهجوم واستطاعت أن توقف تقدم تلك القوات وحرمانها من مساعدة القوات الأخرى التي كانت تطوق واحة النخلتين وتدافع عنها دفاعاً مستميتاً .

وتقدمت قوات وسط خطوة خطوة حتى أصبحت على بعد أربعين ياردة من مراكز العدو المحصن وراء قطع الحجر . وسمع رجالي صيحات رفـــاقهم الذين التحموا في معركة مع عدونا في الناحية الأخرى من الواحـــة وتمنوا أن يكونوا معهم، لكن صرخة الأوامر علت قائلة « إلى الإمام » ، فاندفعنا جميعاً صارخين « سافويا » وعلمنا مرفوع يحمله ملازم يحميه جاويشان . كان هـــذا الملازم رجلاً شجاعاً ذكياً إذ ما ان صدرت أوامر التقـــدم حتى كان الأول في الخطوط الأمامية وهو يشعر بنبل المهمة التي هو مكلف بها . وقد علق أحـــد المقداء بعد المعركة على هذا الملازم قائلاً « ان هـــذا الشاب يستميت وقت الخطر وكأنه أحد المسلمين » . وبقي علمنا طوال المعركة يرفرف عالياً .

لكن حادثة كبيرة جداً وقعت بيننا،لأن عدداً من المحاربين العرب تجمع في منخفض وبدأوا يطلقون النار علينا وجرحوا عدداً من رجالنا بينهم حامـل العلم ، الذي اصابته رصاصة في رأسه وسال منه الدم فلطخ العلم . وتقدم ضابط آخر في الحال واستلم رايتنا ! وكانت هذه الحادثة آخر حادثة قاسية ضدنا !

ولم يستطع أي شيء ان يعيد تقدمنا ، اندفعنا إلى الامام كأننا سيل جارف

حتى اختلطنا بالعرب وبدأ القتال بالسلاح الأبيض. فقاتل العرب قتالاً بطولياً وسقط من سقط منهم قتيلا وحاول من بقي الانسحاب .

وبعد مرور ثلاث ساعات من القتال انتصرنا في معركتنا اليوم ، وانسحب العدو منهزماً إلى الدواخل بعد أن تكبد خسائر فاجعة جداً، لأننا وجدنا جثث أربعمئة قتيل في واحة « النخلتين » فقط بالاضافة إلى الجثث التي كانت مبعثرة في كل مكان من ميدان المعركة . وتدل تقديراتنا على أن خسائره الاجمالية قد بلغت ألف رجل بين قتيل وجريح من مجموع قواته التي اشتركت في المعركة بستة الآف رجل . وخسرنا نحن ٢٨ قتيلاً، ثلاثة منهم ضباط و ٨٠ جريحاً منهم ١٢ ضابطاً .

أصبحت حياة الاتراك الآن حياة كآبة وحزن فصراخ النساء لا ينقطع والجنائز والصلوات مستمرة والشيوخ العرب يلومونهم لانهم تركوا رجالهم يموتون في الميدان وحيدين، فاضطر الاتراك إلى رشوتهم بمبلغ ٢٠ ألف ليرة تركية* ووعدوهم بالاشتراك في المعارك بالمستقبل .

اننا نرحب بالأتراك فعلاً ان اشتركوا في المعارك بكل قوتهم ولكننا متأكدون انهم سيستمرون في إجبار العرب على الوقوف في الخطوط الأمامية حتى يبقوا هم في المؤخرة، في الأمن والسلام — مستعدين للاشتراك في الهروب متى بانت الهزيمة لهم ، اتباعاً للطريقة المعتادة التي اتبعوها منذ لحظات نزولنا حتى الآن .

لقد أبدى رجالنا أمثلة عديدة في التضحية والاستبسال ، فلقد تحدى رجال البريد العسكري النار وركضوا من بقعة إلى بقعة أخرى دون خوف ، وأصرّ الجرحى منا على مواصلة القتال وفضلوا الدفاع على حياة المستشفى والعلاج .

لقد جرح الملازم بورتا وهو يقود وحدته، لكنه رفض ترك رجاله وبدأ

* - الليرة تساوي عشرين شلناً .

يزحف على الرمال لأن الجروح كانت في ساقية واشترك في القتال حتى أصيب في صدره ولكنه صرخ « لم يحدث شيء استمروا »، واستمر الرجال فعلاً وهو بينهم حتى توقفوا . وحاول أحد العرب أن يقتله ولكن أحد جنودنا قتله في الحال .

أما أحد رجال فرقتي فقد وقف من المنخفض الذي نحن فيه، فأمرته بالعودة إلى مكانه ولكنه قال : « ولا يهمك ، دعني أطلق عليهم رصاصة أو رصاصتين وأعود بعد ذلك » . وبعد دقيقتين فقط وقع قتيلاً . انه من رجال الاحتياط ومتزوج وله اطفال في إيطاليا .

إن ما ذكرته من أمثلة الشجاعة لا يعطي صورة كافية عن بطولة رجالنا . انهم رجال ولدوا أبطالاً ! لقد أصبح الرجل الإيطالي الذي عرف العالم عنه تعمير القارات ومد السكك الحديدية ونشر الحضارة رجلاً يريد أن يحيي شجاعة أسلافه !

لقد جرح جاويش بإحدى الوحدات ولاحظ أحد الجنود الدم يسيل من كتفه فقال له « انك مجروح » فرد عليه «لا تهتموا بهذا الجرح، هيا الى الامام». وبعد دقيقتين طعن عربي هذا الجاويش وقتله . ان اومبيرتو بانكيلي من مواطني فلورنسا عمل كل المستحيلات للالتحاق بنـــا وجاء على حسابه إلى بنغازي بعد عدة عقبات ومشاق ! وأرسلت أمه برقية الى الجنرال بريكولا والي برقة بعد ما عرفت اصراره على المجيء قائلة: «لقد سافر ابني الى بنغازي لكي يلتحق بالقوات والحرب هناك . أرجو قبوله بدون أي عقاب . انني مسرورة جداً ان ابني يريد الإسراع في الالتحاق بأولئك الذين يحاربون في سبيل إيطاليا والمسيحية . الله يحميه ويحمي رفاقه » .

أما مرافقي الشخصي فقد أصابته رصاصة تحت أذنه وشقت فمه ثم سكنت في رقبته وجرحته جرحاً قاتلاً، وغطى الدم وجهه ، لكنه وقف بجانبي حتى سقط على الأرض ميتاً ، ولم يؤثر موته في رجالي .

انسحب العدو إلى المناطق الداخلية بعد انتصارنا يوم ٣ مارس لأنـه عرف ان مقاومته لا تجدي . وفي إمكاننا أن نؤكد الآن أن تركيا قد خسرت برقة وطرابلس إلى الأبد حتى وإن لم توقف محاولات السلم الحرب الجارية الآن . ولا يستطيع العرب والأتراك إلا تنظيم حرب عصابات ضدنا،وقد تفيـد هذه الحرب في إعاقة قواتنا ولكنها لن تفيد في إعادة السيطرة التركية .

الفصل السادس والعشرون

اميليو : بطل بنغازي

لقد اشتهر الجنرال اميليو ببراعته العسكرية منـــذ أن غزا بنغازي رغم المقاومة العربية التركية ، وقاد معركة النخلتين يوم ٣ مارس سنة ١٩١٢ . وهو من مواليد سيسيليا والروح العسكرية متأصلة فيه ، يدير المعارك بكل هدوء وصبر ، منظره مهيب بشنبه الأبيض الثلجي ، وعيناه براقتـان ولغته حادة ولا يتكلم إلا لإعطاء الأوامر لمساعديه .

وحين يبدأ القتال يصر على ركوب حصانه متحدياً الرصاص بدون خوف ولكنه يصر على أن يحصن رجاله أنفسهم ويقول لهم : « إن مسؤولية رؤية كل ما يدور بالمعركة تقع على عاتقي وليس على عاتقكم ، وما عليكم إلا الانتظار حتى يأتي دوركم » ، وقد حاز على ثقة رجـــاله فيه . وهم يعبدونه لأنه قادهم في الإنزال بجليانه وفي المعارك التي تلت ذلك الانزال حتى أصبحوا لا يشكـّون في أي شيء يقوله . ولما يصدر أوامره يقولون : « أصدر اميليو الأوامر ، ولا بد ان تكون هذه الأوامر على أساس ، هيا بنا » .

وانه من الفخر جداً ان يرى المرء كيف حيت القوات الجنرال اميليو بعد معركة بنغازي . لقد اصطف جنودها في انتباه شديد وحيوه ثم لوّحوا بنادقهم التي لا زال الدم يلمع عليها هاتفين « يعيش الجنرال ، يعيش اميليو » وحـاول الجرحى الذين كانوا محمولين إلى المستشفيات الالتحاق بتحية رفاقهم .

وقد أصدر البرلمان الإيطالي شكراً للجنرال اميليو ، أمـا الملك فقد أعلن عن ترقيته . وأثبت هذا الجنرال حقاً أنه أهل للترقية في معارك رودس فيما بعد عندما قاد القوات الإيطالية وحارب قوات تختلف عن قوات العرب ببرقة ،لأنها قوات من الجيش النظامي التركي مدربة أحسن تدريب .

وقد جاء آخر دليل على قدرة اميليو العسكرية يوم ١٦ مايو ١٩١٢ عندما استسلم له ١٢٠٠ جندي تركي وأثبتوا ان الجيش التركي لا يستطيع أن يكون نداً للجيش الإيطالي وتخطيطات جنراله . وقد وصف أحد الضباط الذين كانوا بمعركة ١٦ مايو ضد رودس خطط الجنرال قائلاً : « انها خطط واسعة الأفق ، واسعة التنفيذ وتأتي بنتائج عظيمة . ولا يمكن أن أقول إلا أن انتصاره الآن أتى بآخر الذكاء العسكري . وقد أعدت سيدات مدينة بزيثوس عربة مطوقة بالزهور للجنرال اميليو بعد أن استسلم الأتراك له هناك وقرر العودة إلى رودس ،ولكنه رفض ركب تلك العربة واكتفى بشكر السيدات على شعورهن، وعاد إلى حصانه وركبه وقـاد قواته ومعهم الألف وخمسمئة تركي ، وسار أمامهم.ورمى عليه السكان الورود والأزهار فتوقف وألقى فيهم الخطابالتالي:

« لا يحدث شيء إلا باذن الله ، وان الانتصار الذي حققناه جـاء بإرادة جنودنا البواسل وإرادة الله . وها نحن هزمنا العدو وأسرنا قواته ، وأصبحت الظروف ملائمة لنا للعمل على مساعدة الشعب . تحيا إيطاليا » .

ورد السكان « تعيش إيطاليا ، يعيش الجنرال أميليو » . وقد حاول الأتراك اغتيال هـذا الجنرال مثلما حاولوا اغتيال مراسل جريـدة تمبس الفرنسية بطرابلس. فقد كان في احدى المرات شاقاً قرية من قرى رودس، وأُطلقت عليه النار ، وأمر حراسه بمتابعة المجرمين ، وألقوا عليهم القبض فاتضح انهما عميلان من عملاء الأتراك الشبان . ورمى هذان العميلان نفسيهما تحت قدمه طـالبين الرحمة ولكنه أمر بإطلاق النار عليهما في الحال قائلاً : « هذه هي الطريقة التي نعامل بها المرتزقة » .

الفصل السابع والعشرون

الجندي الايطالي

كشفت الحرب الحالية أن الجيش التركي وأسطوله غير مستعدين وغير قادرين على المعارك، وكشفت للعالم الوحشية التقليدية التي عرف بها الجندي التركي.. لأنه ارتكب عمليات التمثيل بالجنود الإيطاليين ورمى بالجيش التركي كله بعيداً عن معالم الحضارة. أما إيطاليا فقد أثبتت للعالم أنها دولة ذات قوة من الدرجة الأولى، لأنها استعملت – لأول مرة في التاريخ العسكري – الطيران لأغراض متعددة: كالاستطلاع، والدفاع، والهجوم. وأعلن النقاد العسكريون بما في ذلك البريطانيون – إعجابهم بالأسطول الإيطالي وقدرة بحارته ومدفعيته، وبرهنت قوات إيطاليا البرية على كفاءتها بما حققته من انتصارات، شهد بذلك المستر بارلاي مراسل جريدة الدايلي تلغراف حيث كتب ما يلي يوم ٢٢ نوفمبر:

« إن أفراد القوات الإيطالية لا يعرفون التعب، ودائماً مريحون وسعداء، ويظهرون مهارة في استغلال المواد البسيطة التي تحت أيديهم لبناء حصون قوية صالحة، ليس فقط لجعل مراكزهم أمينة ضد الغارات بل وفي استغلالها ضد قساوة الجو والطبيعة. وقد امتدت تحصينات هؤلاء الجنود أميالاً طويلة حول طرابلس، ولا يمكن لأي قوة أن تغزوها

مـــا لم يكن عددها على الأقل ثمانية أضعاف ما بها من قوات . ان الأعمال التي يقوم بها الجندي الإيطالي أعمال رائعة، خاصة وانه يعمل ليل نهار بدون استثنـــاء . ومن يرى منجزاته يعرف ان القوة والفعالية الرومانية لم تمت من الوجود » .

وكتب المسيو ليروكس مراسل جريدة ماتن الفرنسية يوم ٢٦ نوفمبر قائلاً :

« يتحدى الجندي الإيطالي رصاص الأعداء بشجاعة وصبر ، ويشرفني أن أبرق إليكم عن أمثلة بطولة رأيتها أمام عيني حتى أثبت لكم روعة وقدرة هذا الجيش الذي يتقدم رجاله بكل ثبات وثقة ويحتـــل مراكزه ويشيد مواقعه ويقاتل وراءها ببسالة . ولا يمكن أن نتصور مدى قوة عزمه عندمـــا ينطلق عليه الرصاص . لقد رأيت الرصاص ينهمر عليه مرات ومرات ، ولكن لم أر رجلاً واحداً منه يتقهقر أو يرتد . انني أعترف أن ما يقوم به الجيش الإيطالي شيء غير عادي » .

أمـــا مراسل جريدة نوفا فريميا Novoe Vremya الروسية فقد بعث إلى سان بيترزبورج قائلا :

« يزداد تقدير وإعجاب المرء بالجيش الإيطالي كلما زادت معرفته له . وقد أبرقت سابقاً مبدياً إعجابي بحماس ضباطه وروحهم المعنوية . ان ضباط هـــذا الجيش يعاملون جنودهم معاملة بعيدة عن الخيلاء والترفع .

ولكن الجيش الإيطالي صارم في تطبيق القوانين العسكرية ولا يسمح بتعدي الحدود . ولم أسمع عن أي جندي إيطالي يشتكي من معاملة رؤسائه ، ولا يسع المرء إلا أن يعرض صورة حسنة عن الإيطـــاليين لأنهم مدربون تدريباً حسناً

وأذكياء يعرفون القراءة والكتابة ، ويقرأون الصحف ويدخلون المناقشات ويحبون النكتة والمرح . واذكر الحادثة التالية حتى أريكم سرعة بديهتهم ونكتتهم : لقد وقع في احدى المرات اشتباك وسمع أحد زملائي الصحفيين البارود فصاح قائلاً : « إلى الأمام يا جنود » فابتسم الجنود الإيطاليون وسكت آخرون ، ولكن أحدهم رد قائلاً : « إلى الأمام يا رجال الصحافة » فاحمر وجه ذلك الصحفي ولم يحاول أن يشجعهم مرة أخرى ! »

وهكذا يواجه الجندي الايطالي المصاعب والمشاق بروح المرح والسرور،ولا تغادره الابتسامة رغم الأمطار والبرد وهجمات العدو ، ولم يبد عليه أي نوع من إشارات القلق والتعب رغم رياح القبلي التي تلفح وجهه وعينيه . لقد صبر عندما انتشرت الكوليرا في معسكره ، وصبر عندما هدم وادي المجنين مراكز التحصين والخنادق التي بذل في سبيلها وقتاً طويلاً وجهداً عظيماً . ويدخل وزملاؤه المعركة ولكنهم يغنون ويمرحون بعد انتهائها . وهكذا يضيف الجندي الإيطالي صفحة مجيدة من صفحات البطولة إلى تاريخ بلاده» .

وقد تحدث المستر بوقوت في كتاب له معنون « الإيطاليون اليوم » عن الجندي الإيطالي فقال :

« بدأت الحياة العسكرية الإيطالية تتحسن منذ أن تولى الملك الحالي في ٢٠ يوليو سنة ١٩٠٠ العرش وكرس وقتاً وجهداً لترقية حياة الجندية . وقد أصبح من واجب الجندي الإيطالي أن يلبي النداء في كل وقت ومكان وفي حالات البراكين والزلازل والفيضانات. وقد شهدت أوروبا كلها ببراعة رجال الفروسية الإيطالية وها هي اليوم تشهد ببراعة البندقية والمدفعية الايطالية . ويمتاز الإيطاليون بالطيبة ، ولا يمكن ، إلا في حالات استثنائية ، أن يرى المرء جندياً إيطالياً مخموراً في المحلات العامة » .

إن إيطاليا اليوم تنظر إلى مستقبل عظيم مشرف طالما ان جنديها يتمتع بهذه الصفات ؛ والله يبارك في هؤلاء الجنود الشرفاء الذين ضحوا بحياتهم في خدمة بلادهم ورفعوا قيمتها بين دول العالم أجمع . لقد برهنتم أيها الرجال للعالم على نبل الطينة التي أتيتم منها ؛ والله يبارك فيكم أيها الجنود الأبطال الطيبون . ان تحية من قتلوا في ليبانتز [١] وفي سان مارينو [٢] وفي كالاتافيمي [٣] تحية عظيمة لكم .

---

(١) هزم الايطاليون والاسبان الاتراك في سنة ١٥٧١ تحت قيادة دون جون النمساوي في هذه المعركة .

(٢) هزم الإيطاليون النمساويين في سنة ١٨٥٩ بهذه المعركة .

(٣) هزم غاريبالدي حكم البوربون في ١٤ / ٥ / ١٨٦٠ – في سيسيليا .

الخـــاتمة

اعتقد الأوربيون ان ايطاليا لن تلاقي أية صعوبة في غزو طرابلس وان عملية الاحتلال ستكون مجرد نزهة عندما أعلنّا الحرب في شهر سبتمبر سنة ١٩١١ ، إلا أن رئاسة الأركان الإيطالية تنبأت بـــأن العكس سيحدث ، لأن العرب سيتحالفون مع الأتراك للدفاع عن ولاية طرابلس وقامت بكل الاستعدادات لحرب طويلة الأمد . وقد ساعد فرار الأتراك من المناطق التي تهاجمهـا القوات الإيطالية على تطويل أمد الحرب . والقيادة الايطالية توقعت هذا الهروب ، وأخذته في الحسبان عندمـــا خططت للغزو وقررت أن تهاجم طرابلس بالأسطول ، وان تنزل القوات البرية على طرفي المدينة شرقاً وغرباً حتى تمنع انسحاب العدو. ولكن استطاع الأتراك للأسف أن يهربوا إلى الدواخل ويبدأوا ضدنا حرباً جهادية وجندوا معهم أغلبية السكان . وهكذا أصبحت الحرب ، كأي حرب استعمارية في افريقيا ، حرباً طويلة الأجل .

ويتساءل البريطانيون بكل بساطة عن أسباب بطء تقدمنا العسكري في طرابلس رغم انه لم يمض علينا إلا بضعة شهور ، ولكنهم يغيرون تساؤلاتهم ان عرفوا ان اللورد كتشنر اصطدم مرات ومرات بسكان الدواخل المصرية كلما حاول التقدم ، رغم مرور سنين على وجود القوات البريطانية بمصر . مثلما وقع يوم ١٢ مارس سنة ١٩١٢ في منطقة نهر الغبر ؟

إن حربنا في طرابلس ستتوقف حالاً متى توقف سيل الأسلحة المهربة من

الحدود المصرية والتونسية . ولكن مهما حاول الأتراك الآن لا يمكن أن تعود طرابلس وبرقة إليهم .

وقد تأتي آخر مراحل تطور الحرب بكوارث ضد تركيا وجيشها وأسطولها، لأنها لا تستطيع أن تضاهي قوتنا براً وبحراً وجواً . وهاهي ايطاليا قد حصنت نفسها في المراكز الساحلية وفي بعض المناطق الداخلية المهمة ، وتعتقد ان الإقدام على احتلال الدواخل حالياً لا يخدم مصالحها . ان المناطق الواقعة تحت السيطرة الإيطالية تسيطر على القطر كله ولا يمكن أن تستعيدها تركيا مهما جندت من قوى . وسنبدأ في زحفنا ضد الدواخل متى انتهى موسم الجفاف الحالي وأتممنا استعداداتنا الاستراتيجية مثل مد السكك الحديدية وأسّسنا مواقع تموين لقواتنا . وقد علّمت الحروب الاستعمارية البريطانية والفرنسية إيطاليا أن تتقبل الأمور ببطء إن أرادت أن تتأكد من الانتصارات دون تعرض للخسائر في الأرواح .

لقد أشاد الدكتور سفاين فورث الرحالة المشهور الذي يعرف طرابلس شبراً شبراً ويفهم العرب المقيمين في شمال افريقيا – بالتحصينات ومراكز الدفاع الإيطالية وقال :

«لقد وجد الفرنسيون أنفسهم في وضع أفضل من الوضع الذي به الايطاليون بطرابلس اليوم عندما غزوا الجزائر منذ ثمانين سنة خلت ، لأنهم كانوا يقاتلون أهل بلاد غنيه بها كل ما يحتاجه جيشهم ؛ ولم تكن حملة الفرنسيين حملة ضد صحراء مثل حملة الإيطاليين .. حيث أن نقص الماء يعيق التقدم العسكري ، وحيث صعوبة المواصلات حادة، وعدد الجمال قليل. ولكن الفرنسيين لم يسيطروا على مساحة أكثر من المساحة التي يسيطر عليها الايطاليون الآن في خلال عشر سنوات بعد نزولهم بالجزائر » .

وإن فسرنا كلام هذا الدكتور نجد ان الاستيلاء على الدواخل ليس مهماً الآن ، بل انه خطر إلى حد ما لأنه يقول :

« ان الزحف على الدواخل يحتاج إلى سكة حديد تحميها مراكز عسكرية كل مسافة سبعة أميـــال ، وتحتل إيطاليا الآن طرابلس ، جنزور ، بو كماش ، الخمس ، مصراتة ، بنغازي ، درنة ، وطبرق ، أو بمعنى آخر انهـــا تحتل كل المراكز الساحلية المهمة . وما عليها إلا الانتظار والصبر وتحصين نفسها بهـذه المراكز. ولا محالة ان سكان المناطق الداخلية سيضطرون لإعلان الولاء لسادتهم الجدد متى دق الجوع أبوابهم . يجب على إيطاليا أن تصبر : الحرب الاستعمارية لا تكون قصيرة » .

الا انني اتساءل لماذا لا زالت تركيا تقاوم ؟ هل لديها أي امل في النجاح ؟ انها تقاوم لأنها تتخيل أن القوى الأوروبية ستتدخل إلى صالحها ، ولكن هذه المقاومة ستتوقف متى هاجمت ايطاليا بعض المراكز التركية الحساسة في مناطق الامبراطورية العثمانية .

لقد بدأ مسرح الحرب يمتد شرقاً رغماً عن ارادة ايطاليا، إذ اضطررنا يوم ١٧ نوفمبر لقصف ميناءي الحديدة والعقبة على البحر الأحمر واغرقنا سبعة زوارق تركية على حدود قنفذة يوم ٧ يناير ١٩١٢ . ورفضت تركيا تدخـــل القوى المحايدة لبدء المفاوضات فقمنا بمهاجمة بحر إيجه واغرقنا بارجتين تركيتين يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩١٢ في ميناء بيروت ، وقصفنا بعض المدافـــع على الدردنيل ، واحتلينا ثلاث عشرة جزيرة منها جزيرة رودس .

وهاجم الجنرال اميليو يوم ٤ مايو سنة ١٩١٢ رودس واحتلها رغم مقاومة الالفي جندي الاتراك والسجناء الذين اطلقوا من سجونهم لمساعدتهم . ورفعنـا العلم الايطالي في اليوم الثاني ، ومر الأتراك إلى منـاطق بزيثوس حتى يستعـدوا لحرب العصابات ضدنا . وعرف الجنرال اميليو خططهم فأسل لهم يوم ١٥ ثلاث فرق عسكرية وطوقهم ليلاً . وطلب الأتراك من الجنرال ان يقبل استسلامهم . وتم كل شيء واستولى جيشنا على ٦ مـــدافع و ١٠٠٠ بندقية و ٢٠٠ صندوق ذخيرة . وقد اعطى الجنرال اميليو للاتراك فرصة طالما كانوا يتغنون بهـا وهي

فرصة « محاربة ايطاليا على أرض أوروبية » ولمـــا جاءتهم الفرصة اظهروا كل خوف وجبن . وقد فهم العالم اجمع بعد هزيمة بزيثوس أن المقاومة التركية في طرابلس تعتمد على شعور العرب الديني فقط .

ويصعب على المرء أن يتنبأ بما قد تقدم عليه رئاسة الأركان الايطـــالية من خطوات في المستقبل،إلا أنني متأكد أن ايطاليا لن تتردد في مواصلة انتصاراتها في مراكز تركية حساسة أخرى ، ان استمرت المقاومة التركية . وذلك لأن الأسطول الايطالي شديد والأيدي التي تشرف عليه أيدٍ شجاعة . ولا أعتقد أن مراكز الدفاع التركية على الدردنيل قادرة على حماية استانبول ، خاصة وأن شعوب البانيا ومقدونيا في بداية الثورة الآن ضد الحكم التركي ، وثورة الشيخ إدريس تشغل حوالى ٤٠ الف جندي في آسيا الصغرى .ان وضع تركيا حرج جداً،ولا تستطيع الا الرد على الانتصارات الايطالية إما بقفل مضائق الدردنيل ضد الملاحة العالمية أو بطرد كل الايطاليين المقيمين بتركيا . ولكنها سوف لن تغير عزيمة ايطاليا ولن تؤثر في تحمس شعبها، لأنه شعب يحب مليكه ويعبده . ويحاول البعض أن يظهر الخزينة الايطـــالية في صورة ضعيفة ويقول انها لا تستطيع ان تمول نفقات الحرب لوقت طويل ، ونسوا ان السنيور تاديسكو قد اعلن حديثاً ان خزينتنا كافية لسد نفقات الحرب لمدة عشرة أشهر بدون الاستعانة بأي قروض رغم ان الحرب تكلفنا يومياً ٤٠ ألف جنيه استرليني .

أن الخزينة الايطالية قادرة على تحمل نفقـــات الحرب حتى ولو استمرت هـــذه الحرب لسنوات ، لأنها كانت تتمتع بفائض قدره ٢٫٠٤٠٫٠٠٠ جنيه سنويا منذ سنة ١٨٩٨ حتى الآن ، وبلغ مجموع رصيد هذا الفائض مبلغ ٢٨٫٨ مليوناً . وقد نالت الخزينة هذا الفائض بدون إضافة أي ضرائب جديدة ، بل ان بعض الضرائب قد خفضت رغم أن النفقات العامة زادت ٢٥ مليون جنيه . ولا شك أن حالة الخزينة الايطالية جيدة ، خـــاصة وانها تملك تحت تصرفها ما يعادل ٤ ملايين جنيه كسندات ، بالاضافة إلى قدرتها الحصول على

أي قرض تريده . ولو فهمت تركيا التي لم تستطع أن تحصل على دين بقيمة مليوني جنيه من أوروبا كلها هذا الوضع لأقدمت على خطوة حكيمة غير الخطوة الحالية .

وقد اعلنت إيطاليا يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ سيادتها الكاملة على طرابلس وبرقة ، وسوف لن تعاد هاتان الولايتان إلى الحكم التركي ، ولم يبق امام العالم الا الاعتراف بالحكم الايطالي فيهما . وليس هناك أي مجال لأي مفاوضات للسلام ما لم يتم هذا الاعتراف . وباختصار فانه لا يجوز لدولة مثل تركيا التي فصلت من مناطق نفوذها ولم تستطع أن تعيد سلطتها إليها ولا تستطيع أن تسيطر على البحر حتى تتصل بها أن تتكلم عن السيادة في هذه المناطق أو تعارض اعلان السيادة الايطالية عليها .

وهناك بالفعل جيش تركي بطرابلس ، ولكنه جيش معزول عن كل المصادر التي يريدها ، ولا يستطيع بأي حال أن يغير مجرى الحرب . هذا هو وضع تركيا ضد ايطاليا وبين الدول الحيادية التي هي حساسة من ناحية انتشار الحرب إلى أوروبا ، فلا تترك فرصة الا وتحاول أن تقنع الباب العالي بالخضوع للامر الواقع الذي سوف لن تفلح الحرب في تغييره .

قيمة طرابلس الانتاجية : لقد كتبت مقالات عديدة في بريطانيا تقول ان ايطاليا قد رمت نفسها في حرب غالية في سبيل الاستيلاء على قطعة من الصحراء . وهذه المقالات مخطئة جداً ، لأن ايطاليا تهدف ليس فقط لتأمين مركزها في البحر المتوسط قبل ان تقفل عليها الأبواب دولة أخرى ، وإنما تهدف ايضاً إلى احتلال بلاد تعادل مساحتها ثلاثة أضعاف شبه الجزيرة الايطالية ، بها مناطق واسعة صالحة للزراعة بالاضافة إلى ما بها من معادن. وقد وجدنا مساحة الاراضي الزراعية تزيد عما كنا نتوقعه وقادرة على انتاج الزيتون اسوة بأراضي تونس التي استغلها الفرنسيون في هذا الحقل . ويبلغ معدل الامطار السنوي بها عدة انشات .

واني اعتقد ان تغيراً ما قد طرأ على مناخ البحر المتوسط لأن هناك فرقاً بين ماضي هذه المناطق وحاضرها ، ولكن هذا الاعتقاد لا أساس له ، ويجب البحث عن أسباب هذا الفرق في نظريات أخرى . لقد نسي المؤرخون الذين يرون أن الفتح الأسلامي قد جاء بنتائج سياسية ودينية عظيمة أن يذكروا أن هذا الفتح جاء بثورة زراعية أعظم في عواقبها . وقد فهمت او بالأحرى عرفت الاجيال القديمة أن الاشجار تنمو حتى في المناطق التي تقل بها الامطار، كما عرفت هذه الأجيال ايضاً أن المنطقة الممتدة من شرق البلاد حتى المغرب كانت مغطاة بالحدائق والجنائن . ولكن العرب جاءوا وقضوا على الاشجار وتركوا الاراضي تنمو بها الاعشاب فقط . .لأنهم بدو رحّل ، وحولوا المناطق التي كانت في يوم من الايام مزدهرة إلى بقاع تسكنها قبائل البدو . وما على الايطاليين اليوم الا اعادة ذلك التاريخ القديم بزراعة الارض واحياء الاشجار كما فعل الفرنسيون في تونس والجزائر . وهذه هي المستعمرة التي استولت عليها ايطاليا التي ينتظر الملايين من ابنائها فرصة استغلال طاقاتهم الزراعية المشهورة في برقة وطرابلس بدل استغلالها في تونس او امريكا .

ان الايطاليين اليوم يعودون إلى أرض حكمها أجدادهم وتركوا بها آثاراً لم يستطع الاتراك والعرب محوها من الوجود . ويرى الايطاليون عودتهم عودةً بحكم العدالة ويراها الاوروبيون الآخرون عودة بحكم الواجب ، وهذه العودة ستفيد الحضارة . وها هي ايطاليا – ايطاليا مركز البروليتاريا ، ايطاليا المرحة التي تعودت على العذاب والعناء ، ايطاليا التي ولدت قبل خمسين سنة فقط – تنزل الى مسرح الاحداث لتعيد الحياة إلى تراثها القديم !

اتفاقية لوزان(*)

لوزان في ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢

« اتفاقية سلم بين ملك إيطاليا وامبراطور الدولة العثمانية . لقد اتفق كل من صاحب الجلالة ملك إيطاليا وصاحب الجلالة امبراطور الدولة العثمانية على انهاء حالة الحرب الموجودة بين بلديهما بدافع الرغبة المشتركة . ويمثل جلالة ملك إيطاليا :

السنيور بييترو بيرتوليتي — عضو مجلس برلمان .

السنيور فويدو فيوريناتو — عضو مجلس برلمان ومستشار دولة .

السنيور جيوزيبي فولبي .

ويمثل جلالة الامبراطور العثماني :

صاحب السعادة محمد بني بك — وزير مفوض .

صاحب السعادة رومبيوقلو فخر الدين بك — وزير مفوض .

●

مادة ١ — تتعهد الدولتان بوقف العمليات العسكرية حالاً بعد التوقيع على هذه الاتفاقية وبإرسال مندوبين للإشراف على تنفيذها .

---

* لم ترد بهذا الكتاب .

مادة ٢ – تتعهد الدولتان بإعطاء الأوامر الفورية لاستدعاء الموظفين المدنيين والضباط والقوات التابعة لها في المناطق التالية: منطقتي برقة وطرابلس بالنسبة للدولة العثمانية ، وجزر بحر إيجه بالنسبة لإيطاليا .

ويتم سحب الموظفين المدنيين والضباط والقوات الايطالية من بحر إيجه بعد أن تسحب الدولة العثمانية ضباطها وقواتها وموظفيها المدنيين من طرابلس وبرقة.

مادة ٣ – تتبادل الدولتان أسرى الحرب بدون أي تأخير .

مادة ٤ – تتعهد الدولتان بإصدار عفو عام كامل عن كل من اشترك من السكان في طرابلس وبرقة وجزر إيجه في العمليات الحربية أو تعاونوا مع العدو في سبيل المحافظة على حقوقهم ، ويستثنى من هؤلاء السكان مرتكبي الجرائم المدنية . واستناداً على هذا النص لا يجوز أن يعاقب أي شخص بسبب إعلان رأيه السياسي والعسكري أثناء مدة الحرب، ويعاد إلى كل من ألقي عليه القبض لسبب من الأسباب المذكورة حريته في الحال .

مادة ٥ : تحيي الدولتان الاتفاقيات والمعاهدات التي كانت عاملة بينهما قبل بدء الحرب وتضعهما موضع التنفيذ ، وتعيد الدولتان علاقاتهما إلى الوضع التي كانت عليه في الماضي وتترك كل واحدة منهما رعاياهـا يعيدون علاقتهم برعايا الدولة الأخرى .

مادة ٦ : تتعهد الدولة الايطالية ، بعد مراجعة اتفاقياتها التجارية المعقودة مع القوى العالمية الأخرى ، انها ستعقد اتفاقياتها التجارية المعقودة مع الدولة العثمانية مبنية على الحقوق الأوروبية العامـة : أي بمعنى انها ستعطي للدولة العثمانية الاستقلال الاقتصادي الكامل وحق الاشراف على الأمور التجارية والجمارك أسوة بما فعلته الدول الأوروبية الأخرى دون أن تتقيد بالاتفاقية المعقودة في الماضي . إلا أنه من المفهوم أن الاتفاقية المشار إليها سوف لن توضع

موضع التنفيذ ما لم توضع مثيلاتها من الاتفاقات التجارية الأخرى المعقودة بين الباب العالي والقوى العالمية موضع التنفيذ. وتوافق الحكومة الايطالية على رفع القيمة الجمركية . من ١١ ٪ إلى ١٥ ٪ في تركيا وعلى انشاء احتكارات جديدة وعلى تخفيض الضرائب الاضافية على المواد التالية : البترول، السجائر ، الورق، الكبريت، الكحول ، ورق اللعب، شرط أن تطبق نفس الحالات على منتجات الدول الأخرى بدون تمييز . أما فيما يتعلق بالمواد الموصوفة كمواد احتكار فإن المؤسسات المشرفة على استيرادها ستقوم باستيراد الصناعات الايطالية بنسبة مئوية تتناسب والاستيراد السنوي وستقوم بوضع أسعارها حسب سوق اليوم بعد أن تأخذ في الحسبان جودة المادة والأسعار الموجودة في السوق . أما ان فضلت تركيا فرض ضرائب إضافية على المواد الخمس المذكورة أعلاه بدل اقامة احتكار فانه من المفهوم ان هذه الضرائب سوف تكون في نفس الشروط التي وضعتها تركيا والدول الأخرى .

مادة ٧ : تتعهد إيطاليا بوقف الخدمات البريدية الايطالية العاملة في الدولة التركية على أن تقوم الدول الاخرى التي لها مثل هذه الخدمات بالتوقف .

مادة ٨ : يعلن الباب العالي عن رغبته في تحري بدأ مفاوضات مع القوى الاوروبية والعالمية عن مسألة انهاء طرق الحكم الاستسلامية واستبدالها بطرق أخرى تحترم القانون الدولي. وتعلن ايطاليا انها تؤيد تركيا في هـــذه الخطوة اعتباراً من اليوم لانها تؤمن بسلامة نية الدولة التركية .

مادة ٩ : تعلن الدولة العثمانية ، اعترافاً منها بولاء وخدمـــات المواطنين الايطاليين الذين كانوا يعملون في الادراة الحكومية وطردوا عندما بدأت الحرب انها ستقوم بارجاع هؤلاء الموظفين الى مراكزهم التي كانوا بها وستدفع لهـــم مرتباتهم عن المدة التي انقطعت فيها خدماتهم وسوف لن تحسب مدة الانقطاع ضد من يستحق منهم التقاعد . وبالاضافة إلى ذلك تتعهد الدولة العثمانية انهـــا سوف تتوسط مع المؤسسات الاخرى التي لها بهم علاقة مثل البنوك والهيئات

المالية ومصالح السكك الحديدية وغيرهـــا حتى تعطي هذه المؤسسات نفس الحقوق المذكورة أعلاه للموظفين الايطاليين .

مادة ١٠ : تتعهد الحكومة الإيطالية انها ستدفع ديونها للدولة التركية سنوياً بمبلغ تعادل قيمته معدل دفعة كل سنة من السنوات الثلاث التي سبقت الحرب وتحول هذه الدفعات إلى وزارة المالية بعد قبض حاصلات المقاطعتين (طرابلس وبرقة) . وستتولى لجنة من الدولتين تعيين القيمة التي تدفع سنوياً ، وإن لم يتفق أعضاء اللجنة بسبب أي خلاف تستعمل الدولتان حكماً لتولي تصفية الخلاف ، وإن لم يفلح الحكم في تصفية هذا الخلاف تقوم كل دولة من الدولتين المتعاقدتين باختيار دولة أخرى لتكون نائباً لها في مناقشة الخلاف ويعد القرار نهائياً فيما بعد . وسيكون من حق الحكومة الايطالية أو وزارة المالية التركية استبدال القيمة السنوية التي تدفعها الحكومة الايطالية بمبلغ نقدي بالاضافة إلى ٤ ٪ كأرباح عليه . وتعلن الحكومة الايطالية أن المبلغ السنوي سوف لن يكون أقل من مليوني ليرة إيطالية وانها مستعدة لتحويل ذلك المبلغ إلى وزارة المالية التركية .

مادة ١١ : تصبح الاتفاقية نافذة المفعول من اليوم الذي توقع فيه .

لوزان في ١٨ / ١٠ / ١٩١٢

توقيعات : محمد بك
ر. فخر الدين
بيترو بيرتوليني
فويدو فيوريناتو
جوزيبي فولبي

تبودلت وثائق التصديق في ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢
صدر قانون بتنفيذها في ١٦ ديسمبر سنة ١٩١٢ .



كلاب بوليسية بالاضافة الى الاسلحة الحديثة في غزو ليبيا



جيوفاني جيوليتي : رئيس وزراء ايطاليا والمخطط
السياسي الاستيلاء على ليبيا



كانيفا قائد الحملة ضد ليبيا

فهرست

العنوان	الصفحة
الفصل السادس : الخيانة العظمى	٧٥
الفصل السابع : حوادث تستحق الذكر	٧٩
الفصل الثامن : معركة المصري	٨٣
الفصل التاسع : المقاتل العربي	٩٠
الفصل العاشر : فن السيطرة على العرب	٩٢
الفصل الحادي عشر : أيام الرعب	٩٥
الفصل الثاني عشر : إعدام مترجم	١٠١
الفصل الثالث عشر : قراصنة الصحافة	١٠٤
الفصل الرابع عشر : ايطاليا تبدأ الهجوم	١١٣
الفصل الخامس عشر : حياتنا في الخنادق	١١٦
الفصل السادس عشر: الكوليرا والفيضان	١١٨
الفصل السابع عشر : معركة الهاني	١٢٢
الفصل الثامن عشر : الشنائع التركية	١٣٢
الفصل التاسع عشر : معركة عين زارة	١٣٨
الفصل العشرون : تغير طرابلس	١٤٦
الفصل الحادي والعشرون : وضع الجيش التركي	١٤٨
الفصل الثاني والعشرون : معركة المرقب بالخمس	١٥٠
الفصل الثالث والعشرون : العمليات العسكرية ببرقة	١٥٤
الفصل الرابع والعشرون : عاصمة برقة	١٥٧
الفصل الخامس والعشرون : معركة واحة النخلتين	١٥٩
الفصل السادس والعشرون : اميليو بطل بنغازي	١٦٤
الفصل السابع والعشرون : الجندي الايطالي	١٦٦
الخـــاتمة	١٧٠
اتفاقية لوزان	١٧٦